AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A S.
301
M45iA

ريفيه صونيه
أستاذ علم الاجتماع بجامعة باريس

المدخل في علم الاجتماع

ترجمه وقدم له

الدكتور السيد محمد بدوي
مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب
ومعهد العلوم الاجتماعية
بجامعة فاروق الأول

Cat. Doc. 51
77882

مطبعة دار نشر الثقافة
بالاسكندرية

مقدمـــة المترجم

ظل مؤلف هذا الـــكتاب مدة طويلة أستاذا لعلم التشريع والاجتماع الاقتصادى بكلية الحقوق بجامعة باريس. وكان يعنى فى محاضراته فى علم الاجتماع على وجه الخصوص ببحث النظم السائدة فى مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار. وبفضل هـــذه الابحاث أصبح عضوا فى الأكاديمية العلمية لشئون المستعمرات. وقد اضطرته دواعى العمل وضرورات البحث لأن يقضى جزءاً كبيراً من حياته بعيدا عن وطنه فرنسا. فأخذ يجوب الأقطار النائية باحثا مدققا فى البحث حتى لقب فى الأوساط العلمية «بطواف الكرة الأرضية». وقد قضى ردحا من الزمن فى مصر وله فيها نشاط علمى ترجمت عنه المقالات التى نشرت لـــه عن ابن خلدون فى مجلة «مصر المعاصرة L'Egypte Contemporaine» التى كانت تصدر بالقاهرة عام ١٩١٧. كما عاش فى الجزائر والهند الصينية وسيام ولبنان وسوريا وتونس ومراكش وطرابلس وكندا والولايات المتحده وفى جزائر الانتيل، هذا عدا أقطار أوربا التى زارها كلها تقريبا. وقد جمع خلال هذه الرحلات مجموعة قيمة من المشاهدات والملاحظات واستغلها استغلالا طيبا فى أبحاثه الاجتماعية. وقد نال مرتين شرف التقدم بنتيجة أبحاثه الى «أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية».

ولد رنيه مونييه فى سنة ١٨٨٧ ونال الدكتوراه فى الحقوق فى سنة ١٩٠٩. وتبوأ كرسى الاستاذية فى جامعة ليل Lille فى سنة ١٩١١

وقد كانت سنه حينذاك قد جاوزت الثالثة والعشرين بقليل فكان رقما قياسيا فى تاريخ الجامعات. وقد ظل فى كرسى الاستاذية ثلاثة وثلاثين عاما قضى خمسة عشر منها فيما وراء البحار حتى اعتزل العمل فى سنة ١٩٤٤ .

ومن الطريف أن يعلم القارىء المصرى أنه فى نفس السنة التى بدأ فيها مونييه عمله فى جامعة ليل، أى فى سنة ١٩١١، عرض عليه أن يكون أستاذا فى « مدرسة الحقوق الخديوية » بالقاهرة. فرحب مونييه بهذا العرض وقبل هذا المركز الذى يتيح له السفر إلى أرض الفراعنة ومهد الحضارة. وحضر إلى مصر وقام بتدريس القانون الجنائى والاقتصاد السياسى. ثم تولى فى سنة ١٩١٧ إدارة شئون الاحصاء والنشرات بوزارة « الحقانية » المصرية - وزارة العدل الآن - وقد تكونت له فى هذا العمل خبرة طيبة فى شئون الاحصاء ونشر مؤلفا فى ثلاثة مجلدات عن الاحصائيات القضائية فى مصر. وكان يشغل فى نفس الوقت وظيفة الامين العام « للجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والتشريع ». ونشر عن طريق هذه الجمعية وبفضل عاهل مصر الراحل المغفور له الملك فؤاد الأول المجموعة الضخمة عن « مراجع الدراسات الاقتصادية والتشريعية والاجتماعية فى مصر الحديثة » (أنظر قائمة المؤلفات فى ذيل هذه المقدمة). وتحتوى هذه المجموعة على ما يقرب من ٧٠٠٠ سبعة آلاف مرجع وتعد من أهم أدوات البحث لمن يشتغل بالدراسات الخاصة بوادى النيل.

وفى سنة ١٩١٩ تقدم مونييه لنيل شهادة الاجرجاسيون وهى أرقى شهادة تمنحها كليات الحقوق فى فرنسا. ونال الدبلوم بجدارة « شعبة العلوم الاقتصادية ». ثم عين بعد ذلك أستاذا فى جامعة الجزائر حتى يستطيع أن

يواصل ما بدأه من دراسة النظم الاسلامية. وما أن وطأت أقدامه أرض شمال أفريقيا حتى بدأ أبحاثه فى دراسة قبائل البدو من البربر والعرب على السواء. وقد نشر أهم هذه الابحاث فى مجلدين أحدهما بعنوان «مصنفات عن علم الاجتماع فى شمال أفريقيا» (١٩٣٠) والآخر بعنوان «عادات جزائرية» (١٩٣٥). وله فى هذا المجال كتابات ومؤلفات أخرى بعضها محلى برسومات رسمها المؤلف بريشته.

وفى سنة ١٩٢٤ عاد مونييه إلى باريس حيث استدعته الحكومة ليشغل كرسى الأستاذية فى جامعة باريس وهو شرف لايناله إلا كبار الأساتذة الذين قضوا سنوات عديدة فى جامعات الأقاليم. ولم تكن سنه حينذاك أكثر من سبع وثلاثين سنة. وما أن استقر فى باريس حتى تضاعف نشاطه العلمى وأخذت مؤلفاته وأبحاثه تصدر تباعا الواحد تلو الآخر. وكانت شهرته قد ذاعت فى الأوساط العلمية خصوصا بعد أن استمع الناس إلى محاضراته القيمة التى تناول فيها النظم الاجتماعية فى المستعمرات وعالجها من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. وقد استمر يحاضر فى هذا الموضوع فى جامعة باريس زهاء عشرين عاما.

ثم نشر فى سنة ١٩٢٩ «المدخل فى علم الاجتماع» وهو الكتاب الذى نضع اليوم بين يدى القارىء ترجمته العربية. ويحتوى على خلاصة للدروس التى كان يلقيها الأستاذ فى مدرسة الدراسات الاجتماعية العليا. وفى سنة ١٩٣٠ أصدر «محاولات فى دراسة الطوائف الاجتماعية». وحاول أن يضع فيه تصنيفا شاملا لأنواع الجماعات الإنسانية. ثم عاد وتناول نفس الموضوع بكثير من التعمق والتوسع فى المنهج الذى وضعه لتأليف موسوعة

فى علم الاجتماع (١٩٤٣). وقد استحق على مجهوده هذا جائزة أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية.

وقـــد أخرج مونييه فى خلال العشرين سنة التى قضاها فى كرسى الأستاذية مؤلفات أخرى كثيرة خاصة بشئون المستعمرات من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية (أنظر فيما يلى قائمة المؤلفات). واشترك معه فيها مجموعة من تلاميذه. وقد أراد أن يسهل على هؤلاء التلاميذ وسائل البحث فاقترح إنشاء قسم للدراسات الاثنولوجية بمعهد القانون المقارن الملحق بكلية الحقوق. وما لبث أن ظهر نشاط ذلك القسم فى المؤلفات والابحاث التى نشرها تحت إشراف الاستاذ بعنوان «دراسات فى الإثنولوجيا وعلم الاجتماع التشريعى». وقد جمعت هذه الدراسات فى حوالى خمسة وثلاثين مجلدا.

وحين أرادت الجـــامعة أن تعبر عن عرفانها بفضل هذا الأستاذ وبما أسداه للعلم من خدمات منحته فى سنة ١٩٤٢ شرف رئاسة مسابقة الأجرجاسيون فى كليات الحقوق وأصبح أيضاً المشرف العام على الدراسات السياسية فى المدرسة العليا لشئون المستعمرات.

وقد تمتع الأستاذ فى حياته بعضوية كثير من المجامع والمعاهد العلمية: فكان عضوا فى أكاديمية شئون المستعمرات (١٩٣٢)، وعضوا فى المجلس الأعلى لمستعمرات فرنسا فيما وراء البحار (١٩٣٧)، ورئيسا لجمعية الاساطير الشعبية «الفولكلور»، ورئيسا للمجمع الدولى لعلم الاجتماع. كما نال الدكتوراه الفخرية من جامعة هارفارد بأمريكا (١٩٣٦). وكان كذلك عضوا فى جمعيات كثيرة مثل: جمعية الاقتصاد السياسى، وجمعية الإحصاء،

والمتحف الاجتماعى، والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، وجمعية مازاريك لعلم الاجتماع فى تشيكوسلوفاكيا، وجمعية علم الاجتماع بجنيف. وقد منحته مدينة بيتريس Pietris فى رومانيا لقب «مواطن شرف» لما أسداه إليها من الخدمات فى تنظيم المركز الذى أنشأته للأبحاث الاقتصادية والاجتماعية.

وفى سنة ١٩٤٣ منحت الأكاديمية الفرنسية جائزتها الكبرى وقيمتها عشرة آلاف فرنك للأستاذ مونييه تقديراً لمجهوداته العلمية ودراساته لأحوال المستعمرات.

ونحن إذا نظرنا إلى المؤلفات والأبحاث التى كتبها مونييه نجد أنها تكون سلسلة متصلة الحلقات. ويميزها جميعا طابع خاص يظهر فى رغبة المؤلف وشدة اهتمامه بتحديد الصلة بين الظاهرة الاقتصادية والبناء الاجتماعى بوجه عام.

وقد ظهر هذا الاتجاه فى كتاباته منذ أول بحث كتبه فى سنة ١٩٠٧. وتعددت بعد ذلك الموضوعات التى كتب فيها وعالجها طوال سبع وثلاثين سنة دون أن تفقد طابع الوحدة الذى يميزها. ولذلك يعد الأستاذ فى نظر علماء الاجتماع المعاصرين صاحب مدرسة غرضها الأساسى دراسة الظاهرة الاقتصادية فى ضوء علاقتها بالبيئة العامة وربطها بظروف الزمان والمكان مع مراعاة الدقة العلمية فى الوصف والاهتمام بالتفسير القائم على المشاهدات الحسية. ذلك كان غرض رنيه مونييه العلمى الذى كرس له حياته وعالجه فى مجموعة ضخمة من المؤلفات والمقالات. وقد كان أبعد

النـــاس عن علماء الاجتماع الذين يدرسون الظواهر الاجتماعية «من منازلهم». فسافر وشاهد ودون ملاحظاته واستخلص منها المادة العلمية وكان يهتم دائما بتعليم تلاميذه طريقة البحث ودراسة الوثائق. وحين كان مونييه ينصرف إلى دراسة بعض نواحى الحياة الاجتماعية فى المستعمرات كان يحاول جهد الطاقة الابتعاد عن الطريقة التى كان يتبعها غالبا علماء «الإثنولوجيا» وهى دراسة أحوال السكان الأصليين وعاداتهم كما لو كانوا منفصلين تمام الانفصال عن العالم الخارجى. والحقيقة التى لاجدال فيها أن السكان الاصليين اتصلوا بالبيض منذ أزمنة بعيدة. والدراسة التى تعبر عن هذه الحقيقة هى دراسة علاقاتهم الإنسانية وكفاحهم ومجهوداتهم المشتركة والعوامل النفسية التى تؤثر فيهم. وقد أوضح مونييه وجهة النظر هذه فى المجلدات الثلاثة التى كتبها بعنوان «علم الاجتماع الخاص بشئون المستعمرات Sociologie Coloniale ». وأصبح هذا الكتاب أحد المراجع الهامة التى تدرس فى كثير من جامعات العالم التى تهتم بالشئون لاستعمارية. وقد قال أحد العلماء المعاصرين فى تقريظ هذا الكتاب العلمى الفذ. «إن هذا أول مجهود علمى لمحاولة دراسة النظم الاجتماعية فى المستعمرات يقوم على التحليل الدقيق والبحث المنهجى. ويسجل هذا الكتاب تاريخا هاما فى سجل الدراسات الاجتماعية».

وعندما منحت جامعة هارفارد لقب « الدكتوراه » الفخرية لمونييه وصفته بأنه « العالم الذى ساهم بأعظم نصيب فى تقدم معرفتنا بوظيفة النظم الاجتماعية الأساسية ووجه الأبحاث الهامة التى أدت الى إلمامنا بالقوانين التى تسيطر على حياة الشعوب الفطرية فى المستعمرات الفرنسية ». وقد

وصل مونييه حقاً من أبحاثه الى الكشف عن ظواهر جديدة كما وصف لنا عادات واصطلاحات لم يفطن لها العلماء من قبله .

* * *

والكتاب الذى نقدمه اليوم لقراء العربية يعطينا فكرة واضحة - وإن كانت موجزة - عن المباحث التى يخوض فيها علم الاجتماع بالمعنى العلمى لهذه الكلمة . ولا شك أننا فى مصر فى أشد الحاجة لكثير من الكتب المترجمة أو المؤلفة التى تحدد مرامى ذلك العلم الناشىء وتوضح أغراضه وتقضى على كثير من الغموض الذى يعلق بأذهان الجمهور فيما يتعلق بمسائله .

يدرس علم الاجتماع النظم الانسانية والظواهر الاجتماعية التى تنشأ عن حياة الإنسان داخل نطاق المجتمع دراسة علمية بنفس الطريقة التى يدرس بها أى علم آخر من العلوم الانسانية أو الطبيعية موضوعه الخاص. فالظواهر التى تتكون منها الحياة الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة وتسير حسب نظام ثابت كالظواهر الطبيعية سواء بسواء. فنحن لانستطيع أن نبدلها أو نعدلها حسب أهوائنا . فيجب إذاً أن ننصرف إلى دراستها دراسة موضوعية مقارنة لنتعرف على حقيقتها. فان هذه الدراسة هى التى تعيننا فى المستقبل - أى بعد أن نستكمل البحث ووضع النظريات - على تلمس وجوه الاصلاح .

مهمة العالم الاجتماعى تنحصر إذن فى دراسة وبحث الأنواع أو النماذج المختلفة Types من النظم والعادات الجمعية التى تتبلور فى شكل قوانين أو شعائر أو اصطلاحات، والوصول عن طريق هذه الدراسة إلى نتائج علمية

وقوانين ثابتة. فالعالم الاجتماعى يدرس ويبحث ليقرر ولكى يصل إلى معلومات جديدة عن المجتمعات أو عن الظواهر الاجتماعية التى يدرسها. ولا شأن له بإتاً بالحكم على الأشياء وتعيين وجوه الإصلاح خصوصاً فى المرحلة الاولى التى يحتاج فيها إلى التكوين ووضع النظريات.

وعلاج المشاكل الاجتماعية هو أول ما يتطرق إلى ذهن المرء عندما يذكر علم الاجتماع. والواقع أن هناك فئة من العلماء .وعلى الأخص فى أمريكا حيث يتجه البحث وجهة عملية صرفة. توجه جل اهتمامها إلى هذه الناحية دون غيرها. ونحن لانتكر أن دراسة الأمراض الاجتماعية ومحاولة علاجها تدخل فى اختصاص علم الاجتماع من الناحية التطبيقية. ولكن من الخطأ أن نقصر مدلول علم الاجتماع على دراسة تلك المشاكل. بل إن دراسة تلك المشاكل العملية قبل وضع أسس العلم النظرية لما يتنافى مع الوضع المنطقى للأشياء.

فالواجب إذن أن نفصل بين وجهة النظر الذاتية Subjective ووجهة النظر الموضوعية objective بحيث نتجه أولا إلى بحث الاشياء بحثا موضوعيا لادخل للعاطفة ولا للأهواء الشخصية فيه. فاذا ما استوفينا البحث وتكونت لدينا فكرة واضحة عن الأشياء من حيث هى أمكننا بعد ذلك أن نخطو خطوة أخرى نحو الإصلاح ونكون فى هذه الحالة واثقين بأن مشروعاتنا الإصلاحية قائمة على أساس متين وتدعمها دراسة موضوعية مستفيضة تلم بأطراف البحث من جميع نواحيه. يجب قبل الشروع فى الإصلاح أن نصل أولا إلى استخلاص القوانين التى تنظم حياة المجتمع.

وفكرة الوصول إلى هذه القوانين هى أول خطوة فى سبيل البحث العلمى.

* * *

ويرى القـــارىء فى هذا الكتاب مثالا قيما لدراسة علم الاجتماع على أساس علمى. ولا يدعى مؤلفه أنه استوفى جميع مواضيع بحثه وإنما اقتصر على عـــرض سريع ينير السبيل أمام من يريد أن يبتدئ فى دراسة علم الاجتماع. وقد قسم الكتاب إلى سبعة فصول يبحث الفصل الأول منها فى معنى علم الاجتماع وتحديد مجاله. ويبحث الفصل الثانى فى تعريف الظـواهر الاجتماعية وتحديد الصفات المميزة لها والجزاءات التى تترتب على الخروج عليهـــا. ويبحث الفصلان الثالث والرابع فى تقسيم الظواهر الاجتماعية أولا من حيث أشكال التجمع الإنسانى وثانيا من حيث الوظائف الهامة التى تترتب على كل حياة اجتماعية. ويستطيع القارىء أن يخرج من قراءة هذين الفصلين بمعلومات مركزة عن نظم الأسرة وعن الطوائف الاجتماعية وعن كيفية معالجة علم الاجتماع للظواهر الاقتصادية وطريقة دراسته للغة والقانون والعقائد الدينية. أما الفصل الخامس فيبحث فى طريقة دراسة الظواهر الاجتماعية وهى تنحصر فى ثلاثة مراحل: مرحلة الوصف ومرحلة المقارنة ومرحلة التفسير. وقد ذكر المؤلف فى كثير من المناسبات أن هذه المراحل الثلاثة لابد منها فى كل دراسة علمية. أما الفصلان السادس والسابع فقـــد كرسهما المؤلف لتتبع الحلقات التى مر بها علم الاجتماع فى تطوره خلال عصور التاريخ. وقد دعمت جميع فصول الكتاب بمراجع

قيمة ذكرت فى مواضعها فى الهوامش ليرجع إليهـــا كل من يريد التعمق والاستزادة من البحث فى نقطة خاصة .

* * *

وإنى لأرجو أن يجد طلاب علم الاجتماع فى الكليات والمعاهد العالية وكذلك الجمهور المثقف فى هذا الكتاب ما يصبون اليه من معلومات واضحة ومبسطة عن هذا العلم تعينهم على فهمه والإقبال عليه. كما أرجو أن أوفق إلى أشباع نهمهم إلى ذلك العلم باخراج مولفات أخرى تكون أكثر تفصيلا فى المستقبل القريب إن شـــاء الله .

وفقنا الله لما فيه الخير لوطننا العزيز

ديسمبر سنة ١٩٤٩ الدكتور محمد بدوى

اهم مؤلفـــات المؤلف

1. — L'origine et la Fonction économique des Villes, in-8°, 1909 Paris, Giard et Brière (thèse).
2. — L'économie politique et la sociologie, in-16°, 1910, Paris, Giard et Brière (thèse).
3. — Bibliographie économique, juridique et sociale de l'Egypte moderne (1798-1916) in-8°, 1918, Le Caire, Institut français d'archéologie orientale.
4. — Manuel bibliographique des sciences sociales et économiques, in-8°, 1920, Paris, Recueil Sirey.
5. — La construction collective de la maison en Kabylie, étude sur la coopération économique chez les Berbères du Djurjura, in-4°, 1926, Paris, Institut d'ethnologie.
6. — Introduction à la Sociologie, in-16°, 1929, Paris, Editions Alcan.
7. — Essais sur les groupements sociaux, in-16°, 1930 (Bibliothèque de philosophie contemporaine) Paris, Editions Alcan.
8. — Mélanges de sociologie nord-africaine, in-16°, 1930, Paris, Editions Alcan.
9. — Sociologie Coloniale, trois volumes in-8°, 1932, 1936, 1942, Paris, Domat-Montchrestien.
10. — Loi française et coutume indigène en Algérie, in-8°, 1932, Paris, Domat-Montchrestien.
11. — Coutumes Algériennes, ,in-8°, 1935, Paris Domat-Montchrestien.
12. — Introduction au Folklore juridique, in-4°, 1938, Paris, Editions d'Art et d'Histoire.
13. — Des Comptoirs aux Empires, Histoire universelle des Colonies, in-8°, 1941, Paris, Recueil Sirey.
14. — L'empire français, propos et projets, in-16°, 1942, Paris, Recueil Sirey.
15. — Précis d'un traité de Sociologie, in-8°, 1943, Paris, Domat-Montchrestien.

مقـــدمة المؤلف

هذا « مدخل » أو مقدمة لدراسة علم الاجتماع وضعته على شكل كتيب يستطيع القارىء أن يضعه فى جيبه أو على المنضـــدة الصغيرة بجوار سرير نومه . وقد توخيت فيه أن يكون ذا فائدة لطالب العلم ومحب المعرفة معاً، فوضعت فيه خلاصة الدروس التى ألقيتها فى مقدمة علم الاجتماع خلال أربع سنوات فى « مدرسة الدراسات العليا الاجتماعية » بباريس .

وسيجد فيه القارىء الخطوط الأساسية التى تحدد مجال ذلك العلم وترسم طرق البحث فيه بما فيها من منعطفات ونقط اتصال بعلوم أخرى. فهو بمثابة دليل لمن يريد أن يقوم بسياحة فى محيط العالم الاجتماعى لكشف مجاهله فى سبعة أيام . ولمن يريد أن يتعمق فى البحث أن ينظر فى الهوامش حيث يجد من المراجع ما يشبع نهمه . وقد عنيت باختيار هذه المراجع من مؤلف آخر لى أكبر حجما(١) ووضعتها فى هذا الكتيب الصغير لتكون تمهيداً لدراسة أوسع نطاقاً .

وقد حاولت فى الفصلين السادس والسابع أن أبين أن علم الاجتماع ليس من نتاج وقتنا الحاضر . وإذا كان تاريخه كعلم لا يرجع إلى عهد بعيد فقد مر قبل ذلك بعهود يصح تسميتها « ما قبل تاريخ علم الاجتماع » . وقد أشرت فى تتبعى لخطوات تقدم ذلك العلم إلى المؤلفات التى جمعت المواد

ملاحظة للمترجم :

(١) يشير المؤلف إلى كتابه الذى يحتوى مجموعة ضخمة من المراجع :
Manuel Bibliographique des sciences sociales et économiques, in-8o., 1920.

الأساسية وإلى المصادر الكبرى التى احتوت على أهم الآراء . ويعد هذان الفصلان بمثابة مجموعة من أدوات البحث والوثائق فى علم الاجتماع .

وإذا كان هذا الكتاب لا يسمح إلا بجولة سريعة فللقارىء مطلق الحرية فى أن يقف عند أى نقطة يحلو له الوقوف عندها ليتعمق فى البحث مستعيناً بما أوردناه من المراجع . وله أن يجعل من نفسه مستكشفاً بدل أن يعبر طريقه كسائح .

Fontvielle-en-Provence
قرية فى جنوب فرنسا
أول يناير سنة ١٩٢٩

الفصل الأول

معنى علم الاجتماع

استعملت كلمة « اجتماع Sociologie » منذ عهد ليس ببعيد فقد صاغها أو جست كومت من كلمة لاتنيه وكلمة يونانية حوالى سنة ١٨٣٠ . فهى إذن كلمة نابية عن الأوضاع لأنها لم تشتق كالعادة عن أصلين يونانيين كما هو الحال فى كلمة Biologie (علم الحياة) وكلمة psychologie (علم النفس) . إذ تبتدىء باللاتينية وتنتهى باليونانية . ولكن بالرغم من ذلك فقد شاع استعمالها واعترف الجميع بها . وسنرى أنه من الصعب أن نستعيض عن هذه الكلمة بكلمة أكثر ملاءمة منها(١) .

ومن المناسب ـ حسب ما أعتقد ـ أن نبدأ فى هذا الفصل بتعريف علم الاجتماع ، ثم نحدد مجال هذا العلم ، ونشرح أخيراً « مدلول » هذه الكلمة

١ — تعريف علم الاجتماع

قيل عن علم الاجتماع إنه « العلم الذى يدرس المجتمعات الإنسانية » . وقد عرفه ليتريه Littré فى قاموسه بأنه « علم تقدم المجتمعات الإنسانية » . أما كلمة « علم Science » فانها أو على الأقل كانت فى ذلك الحين سابقة لاوانها .

---

(١) أنظر فى تاريخ هذه الكلمة مقال برانفورد عن أصل واستخدام كلمة « اجتماع »

V. Branford: *On the origins and use of the word «Sociology»:* American Journal of Sociology, IX, P. 145 seq., 1903.

وأنظر أيضاً :

Sociological papers de la Sociological Society de Londres, P. 1 seq., 1905.

وأما عن كلمة « تقدم developpement » فانها تعبر أو يصح أن تعبر عن الفلسفة المتفائلة التى تعتنق مبدأ التقدم . فهذا التعريف يذهب بنا إلى ناحية الفلسفة المتأثرة بالمذهب الوضعى لا إلى ناحية العلم الوضعى . وإذا كنا نريد حتماً أن نقتبس كلمة « علم » فلا بد أن نقصد بذلك أن علم الاجتماع يقصر بحثه على تأمل الظواهر الكائنة بالفعل أو التى كانت فى الماضى وليس له أن يتكهن بما كان يصح أن يكون أو يقترح ما يجب أن يكون . وعلى ذلك فدراسة المجتمعات يجب أن تسير على منهج يماثل المنهج الذى تخضع له العلوم الطبيعية والعلوم الحيوية ويمكن حينئذ أن ينظر إليه على أنه «التاريخ الطبيعى لاشكال التجمع الإنسانى» ويجب أن يظهر ذلك الاتجاه العلمى واضحاً فى تعريفه .

هاكم إذن التعريف الذى يخيل إلى أنه مناسباً لتأكيد الصفة « العلمية » أو « الوضعية » التى يجب أن تقترن بدراسة المجتمعات : فأنا أطلق إسم « علم الاجتماع» على الدراسة الوصفية ، المقارنة ، التفسيرية للمجتمعات الانسانية حسب ما تسمح به مشاهدتها فى الزمان والمكان(١) فموضوع العلم الحقيق الذى يقوم بدراسة المجتمعات يجب أن ينصب على الواقع فى الحاضر والماضى لا على المثالى أو الممكن . يجب أن نفهم ذلك العلم على أنه دراسة حسية ، تاريخية وجغرافية ، للآراء والافعال التى تصدر عن بنى الإنسان مجتمعين . وقد تعمدت أن أكتب كلمة « مجتمعات » فى صيغة الجمع لاوضح هذه الحقيقة . فقد كان يحلو للناس قديماً أن يتكلموا ويتناقشوا فى قوانين

---

(١) وقد عبرت عن هذه الفكرة لأول مرة في الدرس الافتتاحى لسلسلة المحاضرات التي ألقيتها عن دراسة علم الاجتماع فى الجزائر وهو مطبوع بعنوان :

Leçon d'Ouverture d'un cours de Sociologie algérienne, Hespéris (Rabat), P. 93-107, 1922.

« المجتمع » بوجه عام وكانوا ينشئون النظريات والمذاهب الفلسفية عن فكرة المجتمع فكانت آراؤهم آراء مجردة قائمة على الخيال وليست دراسة وصفية حسية . وكانوا ينشئون المذاهب ويضعون القواعد متحللين من قيود الزمان والمكان. ولكننا حين نقول « المجتمعات » بصيغة الجمع فاننا نعبر عن رغبتنا فى دراسة أشكال التجمع الانسانى دون أن نغفل ما بينها من اختلافات وماتكون عليه من درجة التركيب . ومعنى ذلك أننا نرغب فى دراستها فى حالتها الحقيقية الواقعية . فصيغة الجمع أو المفرد فى موضوع كموضوعنا هذا لها دلالتها.

ولكن لماذا نصف دراستنا هذه لعلم الاجتماع بصفات ثلاثة : الوصف والمقارنة والتفسير ؟ ذلك لان هذه الصفات الثلاثة هى التى تحدد روح العلم ومنهجه . فالعلوم الطبيعية أو العلوم التى تعتمد على المشاهدة تهدف أولا إلى وصف الأشياء ثم إلى مقارنتها أو تصنيفها ثم تعمد أخيراً إلى تفسير الظواهر أو تأويلها . فالطريقة التى يتبعها أى عالم يدرس الظواهر الطبيعية هى أن يصف أولا كل موضوع من مواضيع بحثه على حدة ثم يحاول أن يصنف هذه الموضوعات حسب أوجه الشبه أو الاختلاف وذلك بالتقريب أو المقابلة بين ما يلاحظه من خواصها ثم يعمد أخيراً إلى تعليل هذا التشابه أو الاختلاف وبالمثل يجب أن تقوم العلوم الانسانية وبخاصة العلم الذى يدرس الانسان فى المجتمع على هذه الطريقة فيعنى بوصف ومقارنة وتفسير الظواهر الانسانية وعلى الخصوص الظواهر التى تنبعث من الحياة داخل نطاق الجماعة. ملاحظة وتقريب وتعليل - مشاهدة وتقرير وتفسير : مجموعتان تلخصان لنا فى كلمات ثلاثة الغرض من أى دراسة علمية . وكل علم يؤدى فى النهاية إلى مجموعة مركزة من الظواهر الموضحة بأسبابها . وسوف نرى أن تطبيق هذه العمليات الثلاثة على علم الاجتماع يتيح له الفرصة للتميز من تلك الآراء النظرية التى كانت تثار حول الانسان والتى كانت تخدم غايات ومطامع لاشأن لنا بها الآن .

ونحن حين نفهم علم الاجتماع على أنه وصف ومقارنة وتفسير للظواهر التى تتألف منها حياة المجتمع فاننا نوافق طبعاً على أن نعـــده فرعا من علم الانسان الوضعى أو الانتروبولوجيا بمعناه المعروف اليوم لا بحسب المعنى الذى ورد فى فلسفة كانت. هذا العلم الانسانى يتكون من ثلاثة أجزاء يعتمد كل منها على الآخر وتترتب فى تدرج ونظام رسم لنا أوجست كومت خطوطه الاساسية . فهناك أولا دراســـة الانسان الطبيعى أو البيولوجيا الانسانية ونستطيع أن نسميها « الانتربولوجيا الطبيعية » وهناك بعد ذلك دراسة الانسان النفسى (السيكولوجى) أو علم النفس الانسانى ونستطيع أن نسميه « الانتربولوجيا السيكولوجية » . وهناك أخيراً دراسة الانسان الاجتماعى أو علم الاجتماع الانسانى ونستطيع أن نسميه « الانتروبولوجيا الاجتماعية »(١)

٢ – مجال علم الاجتماع

رأينا مما تقدم أن علم الاجتماع قد وضع فى قمة الدراسات الانســـانية ويتعين علينا بعد ذلك أن نحدد مجال ذلك العلم الذى يبحث فى حياة الانسان داخل نطاق المجتمع وقد أثير كثير من الجدل والنقاش حول سعة هذا المجال وتحديد نطاقه . فهناك رأى يميل نحو تضييق ذلك المجال وهناك رأى معارض يميل نحو توسيعه إلى أقصى الحدود .

أما النظرية المضيقة La thèse restrictive فترى أن الحياة فى المجتمع ليست إلا ظاهرة ثانوية فى النشاط الانسانى وأنها ليست من جوهر الانسان

---

(١) يتفق الأستاذ رادكليف براون مع المؤلف على تسمية علم الاجتماع المقارن بالأنتربولوجيا الاجتماعية وإن تكن هذه الأخيرة فى نظره تعنى بصفة خاصة بدراسة المجتمعات البدائية (ملاحظة المترجم) .

فليس من الصفات الأساسية التى تميز طبيعة الانسان أن يعيش دائماً فى جماعة فالإنسان قبل كل شىء ليس إلا فرداً . وإذا أردنا أن نعرف الدوافع الأساسية لسلوكه فعلينا أن نبحث عنها فى داخلية نفسه ، فى شعوره أو فى لا شعوره . ومن الممكن أن نتصور الإنسان فى حالة العزلة فيجب إذن أن نضع دراسته كفرد وحيد فى المكان الأول . وبناء على ذلك يمكن تفسير المجتمع عن طريق الفرد . ولا يعالج علم الاجتماع فى هذه الحالة السلوك الإنسانى بصفة أساسية بل بصفة ثانوية أو عن طريق العرض . وهو يحتل نتيجة لذلك مكاناً ثانوياً إذ لما كانت المصالح والعواطف - وهى متشابهة عند جميع الكائنات الإنسانية - هى التى تسيطر على الحياة الاجتماعية فان علم النفس يجب أن يسير فى الطليعة أمام علم الاجتماع .

ولا تزال هذه الفكرة شائعة جداً إلى يومنا هذا . وهى تفسر لنا المحاولات العديدة التى حوولت لرسم صورة نفسية لحياة إنسان يعيش منفرداً . فمنذ أواخر القرن الثانى عشر المسيحى نشر فيلسوف عربى يدعى ابن طفيل قصة بعنوان « حى بن يقظان » حاول أن يبين فيها التطور العقلى لإنسان يعيش وحيداً لا تربطه أية علاقة بالمجتمع . وقد ترجم هذه القصة إلى اللاتينية بوكوك Pococke فى سنة ١٦٧١ تحت عنوان « الفيلسوف المعلم لنفسه » Philosophus autodidactus . ولا شك أن هذه القصة كانت من المصادر التى استقى منها ديفو Defoe عناصر قصته المشهورة « روبنصن كروزو » التى نشرت فى سنة ١٧٢٠ . وقد انصرف كثير من كتاب القرن الثامن عشر إلى معالجة مثل هذه الموضوعات وكان أكثرهم انطلاقا فى هذا الطريق المؤلف المغمور جاسبار دى بوريو Gaspard de Beaurieux الذى نشر فى سنة ١٧٦٤ قصة بعنوان « تليذ الطبيعة » . نعم تليذ الطبيعة لا تليذ المجتمع فان أمثال هذه القصص والمقالات كانت تعالج دائماً حياة كائن منفرد يستطيع أن يقرأ بنفسه دون

أى تعليم ودون أية وساطة فى « الكتاب الأكبر » الذى تفتحه الطبيعة أمام ناظريه . فهو يكون نفسه بنفسه دون الاستعانة بأى كائن آخر . وقد كتب تسيمرمان Zimmermann كتاباً عن « الوحدة » أشاد فيه بذكر حياة الانفراد . ولا يجب أن نعتقد أن مثل هذه الآراء قد اختفت إلى غير رجعة . فهناك علماء فى العصر الحاضر من أمثال تارد وغيره يعتقدون أن الفرد يفسر نفسه بنفسه عن طريق الحاجات والنزوع التى تحتوى عليها طبيعة كل إنسان . وهم يعتقدون أننا نستطيع فهم الانسان والاحاطة به من جميع نواحيه دون أن تكون هناك حاجة إلى معرفة التأثير الذى يحدثه فيه اختلاطه بالآخرين . وهذا التأثير إن وجد فهو لا يغير من صفاته الذاتية العامة وهى واحدة لاتتأثر لا بالزمان ولا بالمكان فهذا التأثير الخارجى إذن ليس إلا شيئاً من نوع الظواهر الاضافية epiphénomène .

ولكن هذا الرأى قد تهدم من أساسه منذ وقت بعيد . وهل بنا حاجة لأن نعيد على الأسماع ما قاله أرسطو من أن الكائن الإنسانى حيوان اجتماعى Zoon politikon وأنه كان يعنى بذلك أن الميل إلى العيش داخل نطاق الجماعة صفة جوهرية وعنصر أبدى تتميز بهما الطبيعة الإنسانية ؟ وممن جاءوا بعده وتأثروا بفكرته هذه الفيلسوف العربى ابن خلدون الذى عاش فى القرن الرابع عشر فلقد أبان فى قوة فى كتابه عن « تاريخ البربر » ما يتعلق بالحياة الاجتماعية من صفات أساسية وجوهرية . وأثبت بذلك أن علم الاجتماع علم طبيعى لا يقل شأناً فى أهميته علم الحياة (البيولوجيا) (١)

---

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن ابن خلدون : الآراء الاجتماعية لفيلسوف عربى فى القرن الرابع عشر =

Les idées Sociologiques d'un philosophe arabe au XIVe. siècle; dans l'Egypte contemporaine, Le Caire 1917.

وقد توطدت دعائم هذه الفكرة شيئاً فشيئاً حتى أصبحت على حد قول اسبيناس Espinas القاعدة الحقيقية لكل علم يبحث فى الظواهر الاجتماعية . والمبشرون الحقيقيون لعلم الاجتماع ، ونضع فى المقام الأول منهم فرجوسون Ferguson(١) هم أولئك الذين اقتنعوا بأن الإنسان لا يفهم على حقيقته إلا فى ضـــوء المؤثرات التى تقع عليه من المجتمع . وليس هناك أى مبرر للاعتقاد بأن الحياة الاجتماعية صفة عارضة وليست جوهرية فى تحديد « السلوك » الإنسانى . فالاجتماع إذن هو العلم الذى يجب ان يتوج هامة العلوم الإنسانية .

ننتقل الآن إلى الكلام عن النظرية الموسعة La thèse extensive التى تميل على العكس من سابقتها إلى توسيع مجال « المملكة الاجتماعية » إلى أقصى الحدود . إذ يعتقد أصحاب هذه النظرية أن الحياة الجمعية ليست صفة لازمة للإنسان وحده بل أنها أيضاً من الصفات اللازمة للحيوانات أو على الاقل لكثير منها . فيجب إذن أن ندخل فى مجال علم الاجتماع عرضـــاً شاملا « للمجتمعات الحيوانية » فيتسع بذلك أمامنا مجال المقارنة . ألم يقارن Varron فى العصر الرومانى بين مستعمرات الرجال وبين خلايا النحل ؟ أو لم يحاول لوسيان Lucien فى عهد الإغريق أن يقرب بين المدائن القديمة وبين « جمهوريات النمل » ؟ لقد أخذت هذه الفكرة تشق طريقها وسط الجدل الذى ثار حول مسألة « الروح عند الحيوانات » وتأسس بالفعل فى

= وقد نشر البحث قبل ذلك فى شىء من الاختلاف فى مجلة
La Revue internationale de Sociologie, 1913.

وقد انتقلت فكرة أرسطو هذه عن أهمية الحياة فى المجتمع إلى الفلسفة العبرية . راجع كتاب ابن ميمون « دليل الحائرين » .
Maimonide, Le guide des égarés, trad. Munk. II, chap. XL.

(١) أنظر فيما بعد الفصل السادس .

القرن الثامن عشر فرع من علم الاجتماع خاص بدراسة المجتمعات الحيوانية فنشر جورج لوروا Georges Le Roy ملازم الصيد فى حدائق فرساى « رسائل عن الحيوانات » ١٧٦٢ - ١٧٨١ وضمنها نتائج مستفيضة عن ملاحظاته الدقيقة لغريزة الحيوانات الاجتماعية. وجاء بعده ديبون دى نيمور Dupont de Nemours فألقى أمام المجمع العلمى بحثين أكد فيهما وبرهن بالأدلة على « غريزة التجمع » عند الحيوانات حتى المتوحش والمفترس منها(١)

وقد كان ألفرد اسبيناس أول من فتح الطريق امام الأبحاث الجديدة فى هذا المجال برسالته التى قدمها لنيل الدكتوراه عن « المجتمعات الحيوانية » ونشرها فى سنة ١٨٧٧ . وقد كان غرضه من دراسة المجتمعات الحيوانية أن يساهم فى تدعيم روح البحث الموضوعي عن المجتمعات الإنسانية . فالحيوانات ، حتى الأنواع الدنيئة منها ، قد عرفت على ما يظهر نظما شبيهة بنظام الأسرة ونظام الملكية . وهى قادرة على تبادل المساعدة والتعاون ولها طريقتها الخاصة فى القيام بعمل مشترك . وممن أيدوا ذلك من علماء البيولوجيا بيريه Perrier، هوسيه Houssay، وبونييه Bonnier، وبوفييه Bouvier ، رابو Rabaud (٢).

وقد اعترض الكثيرون على النظر إلى أنواع التجمع عند الحيوانات

---

(١) راجع ما كتبه عن الغرائز الحيوانية :

Sur la sociabilité et la moralité du loup, du renard, du chien sauvage....; et sur la moralité..... et les institutions sociales des fourmis (reproduits dans sa philosophie de l'Univers, in-8o., P. 252-264, 283-314, an. VII).

لإلقاء نظرة عامة على هذا الموضوع راجع كتاب جيرو

Girod: Les Sociétés chez les animaux in-16, 1891.

وكتاب هاشيه ـ سوبليه

Hachet-Souplet: Les Sociétés d'animaux, in-16o., 1928.

على أنها « مجتمعات » حقيقية . ولم يكن روسو يطيق الاستماع إلى مثل هذه الآراء لأنها لم تكن تنسجم مع نظريته عن الطيبة المتأصلة فى نفس الإنسان والتى أمسكها الله عن الحيوان . على أن هناك من المفكرين المعتدلين من كان يدعو إلى التريث والحذر عند الخوض فى هذا الموضوع فلم يرغبوا بتاتاً فى تشبيه النظم الإنسانية les institutions بالتصرفات الحيوانية les comportements ومن هؤلاء العالم الاقتصادى آدم سميث والعالمان الاجتماعيان دروكيم وبوجليه . فالعرف les usages والعادات les coutumes والقوانين les lois لا تظهر حقيقة إلا عند بنى الإنسان . أما الحيوان فلا يعرف إلا الغرائز والأفعال المنعكسة . ومن علماء التاريخ الطبيعى من يحذر الباحثين من خطر المبالغة فى التشبيه بين المجتمعات الحيوانية والمجتمعات الإنسانية . ألم يزعم البعض أن نمو الإنسان يتأثر بالانتحاء tropisme فيميل فى اتجاه معين حسب تأثير العوامل الخارجية من ضوء وحرارة الخ . . . ؟ إنهم أرادوا بذلك أن يخضعوا العمليات العليا لتأثير العمليات السفلى .

وليس لى أن أقطع برأى هنا فى مثل هذه المسائل . فقد تكتشف فى يوم ما ، إن عاجلا وإن آجلا ، خصائص مشتركة تنطبق على كل مجتمع حيوانى أو إنسانى وسيقع هذا العبء على عاتق علماء البيولوجيا ولكن الوقت لم يحن بعد لذلك . فيجمل بنا أن نقتصر فى الوقت الحاضر على دراسة الظواهر الاجتماعية عند الكائنات الإنسانية (١) .

---

(١) لا أريد أن أناقش هنا المسألة المدرسية عن علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية التي أعتقد أنها ليست إلا فروعاً وتقسيمات منه . فمن المعقول ومن المستحسن أن يقصر كل باحث دراسته على ظواهر خاصة ولتكن الظواهر الاقتصادية مثلا . ولكن يجب أن نعرف جيداً أنه لا يمكن فصل هذه الظواهر عن الظواهر الاجتماعية الأخرى إلا فى عالم الخيال والخرافة . فنحن لا نستطيع أن نفهم الظواهر الخاصة إلا إذا أدمجناها فى البيئة العامة . وهذا هو القول الفصل فى المسألة وكل جدل فى هذا المعنى لا يتصل إلا بالماضى .

٢ — تسمية علم الاجتماع

من المسائل التى وضعت على بساط البحث مسألة ما إذا كان من الملائم أن تسمى تلك الدراسة التى تبحث فى الاجتماع الإنسانى باسم آخر يكون أكثر انطباقاً عليها من الإسم التقليدى. فان كلمة « اجتماع » Sociologie كانت مثاراً لكثير من أنواع الخلط المؤسفة. وكثر استعمالها فى موضعها وفى غير موضعها وقلما تستعمل الان استعمالها الصحيح. فنحن نلصق كلمة « اجتماعى » بكل ما نقول وبكل ما نكتب عن السياسة والأخلاق ونخلط فى ثنايا كلمة « اجتماع » بين العلم science والفن L'art ، بين التقرير والتقدير. فنحكم على بعض الأشياء ونحرم أخرى باسم علم الاجتماع. ونلقب بالعالم الاجتماعى كل مثالى، وكل مصلح، وكل نبى. الا يحق لنا بعد كل ذلك أن نبحث عن تسمية أخرى نفصل بها عن هذه الآراء الخيالية دراسة « الظواهر » الاجتماعية التى يحاول العلماء وضع أسسها فى عصرنا الحاضر؟ هذه الدراسة إنما هى دراسة تاريخية وجغرافية وليست مطلقا دراسة ميتافيزيقية أو لاهوتية. فالمسألة ليست بالأمر الهين.

ولقد اقترحت أسماء وأسماء لتحل محل الإسم التقليدى. قال القدماء علم السياسة ولكنهم جمعوا تحت مدلوله بين التقرير والتقدير. ولم يفصلوا بين علم الاجتماع والفلسفة. وهكذا أيضا فعل أولئك الذين استخدموا كلمة العلوم السياسية Sciences politiques فى صيغة الجمع. واستخدمت فى ألمانيا كلمة « علوم المالية العامة Sciences camérales » وكلمة « علوم الدولة Sciences d'Etat » ولم يفلح العصر القديم بتاتا فى الفصل بين حدود العلم وحدود الفن. واستمر الحال كذلك أيضا فى العصور الوسطى حيث سادت الفوضى فى هذه الناحية. فأنت لا تستطيع أن تجد ما تبغيه من من وصف المجتمعات ومقارنتها إلا بين خليط من الأخيلة والتأملات حول

العالم وهذه كلها مؤلفات تتصل بالأخلاق دون أى شىء آخر . ثم ظهرت فى العصر الحديث كلمة جديدة هى كلمة : الاقتصاد السياسى . وقد رأى سميث وأتباعه وبصفة خاصة Say وأتباعه أن هذا العلم يجب أن يشتمل على أكبر قدر من الدراسات الوصفية للمجتمعات فى الزمان والمكان . ولكنه إلى جانب ذلك كان يضم بين جوانبه أيضا النظرات التقديرية والمحاولات الاصلاحية للمجتمعات . ثم ظهرت بعد ذلك كلمة « إحصاء » La Statistique وظلت زمنا طويلا لاتقتصر على الدراسة العددية وحدها بل تشمل إلى جانب ذلك الدراسة الوصفية نفسها وتحليل حياة الشعوب(١) وسنرون فيما يلى أنى أحبذ أن ينتهى علم الاجتماع إلى دراسة أحصائية . ولكن علم الاحصاء انحصر فيما بعد مرحلة التكوين فى نطاق ضيق وأصبح لا ينطبق إلا على أحد أشكال الوصف الاجتماعى : أى الشكل الذى يدرس الظواهر من حيث هى أشياء يمكن حصرها وإعطاء بيان عددى عنها .

وما زال مجال الاختيار مفتوحا إلى اليوم بين بعض التعبيرات الأخرى فهناك كلمة « العلوم الأخلاقية » ويرجع تاريخها الى القرن الثامن عشر حيث نعثر عليها فى القاموس الضخم الذى أصدره ج.ب. روبينيه Robinet ويعد تاريخيا أول الموسوعات عن علم الاجتماع (٢) وقد كان كوندورسيه أول من اهتدى فيما أعتقد الى كلمة « العلم الاجتماعى Science sociale » ثم اقتبس عنه هذا التعبير كل من سبنسر وكارى Carey . وقد كاد هذا

---

(١) هناك كتاب في الإحصاء أسدل اليوم عليه ستار النسيان ويعد بحق موسوعة فى علم الإجتماع وهو كتاب .

P. A. Dufau: Traité de Statistique, ou théorie de l'étude des lois d'après lesquelles se développent les faits sociaux: in-8o., 1840.

(٢) هذا القاموس هو :

Dictionnaire universel des sciences morale, économique, politique et diplomatique, ou bibliothèque de l'homme d'Etat et du citoyen, 30 Vol. in-4o., Londres, 1777-1783.

التعبير أن يصبح أصلح تعبير ينطبق على دراستنا العلمية إلا أنه سرعان ما استعير فى نواح أخرى . فاستعمله فورييه Fourier وأتباعه وأساءوا استعماله رغبة منهم فى أن يضفوا الطابع العلمى على نظراتهم الخيالية وتنبؤاتهم الوهمية . ولم يكتب لهذا التعبير البقاء إذ اكتسحته كلمة Sociologie التى اقترحها أو جست كومت . وذاعت هذه الكلمة وانتشرت لا فى فرنسا وحدها بل وأيضا فى البلاد الأجنبية . وعم استعمالها بين الألمان والإيطاليين والانجليز ثم أصبح استعمالها رسميا فى الولايات المتحدة بعد أن قبلها پاول Powell ، دورسى Dorsey . وقبل Giddings أن يستخدمها بحذر مع إضافة وصف آخر إليها بحيث تصبح Inductive Sociology أى علم الاجتماع الاستقرائى . ولكنه الوحيد الذى ظل يتصرف هذا التصرف وقد اقترح البعض كلمة « Sociétologie » أى علم المجتمعات (للدلالة على أنه العلم الذى يدرس المجتمعات دراسة علمية) . وفكر البعض فى إحياء التعبير القديم الذى ابتدعه سان سيمون وهو « الفسيولوجيا الاجتماعية » . أو التعبير الذى نادى به كيتيليه Quetelet وهو « الطبيعة الاجتماعية » . وقد اخترع الإنجليز أخيرا كلمة الانتروبولوجيا الاجتماعية Social anthropology وكان غرضهم من ذلك بالذات قطع دابر الخلط بين الدراسة الوضعية « والدراسة التقديرية » normative . وتهدف كلمة أثنولوجيا فى فرنسا إلى ما يقرب من هذا المعنى . واعترف أنى شديد الميل إلى هذين التعبيرين الأخيرين . ولكن يلوح لى أن لا نصيب لهما من البقاء فى فرنسا . ففى مجال المنافسة تتفوق كلمة « اجتماع » لانها كلمة مختصرة فليس أمامى إذن إلا أن أحذو حذو جيدنجز Giddings فاحتفظ بهذه الكلمة على أن أدعمها بصفة أخرى مستترة جوازا فاذا قلت اختصارا Sociologie وجب على القارىء أن يفهم من ذلك حرفيا Sociologie Comparée أى « علم الاجتماع

المقارن » . ولنا فى ذلك أسوة بالتشريع المقارن . فالمقارنة هى العنصر الاساسى فى كل دراسة علمية . وهى تتبع الوصف وتسبق التفسير . ومهمة العلم قبل كل شىء هى أن يقرب ويقارن بين الظواهر التى تم وصفها من قبل على حدة حتى يستطيع أن يستخلص أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينها وأن يجمعها فى أنواع ومراتب . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة البحث عن أسباب هذا التشابه أو هذا الاختلاف . وتعبير « علم الاجتماع المقارن » يعبر عن كل ذلك باختصار ولذلك فمن الأوفق الإجماع عليه .

الفصل الثانى

تعريف الظواهر الاجتماعية

عندما قلنا إن موضوع علم الاجتماع هو « دراسة المجتمعات » لم نفعل أكثر من أن حددنا مجاله ولا يتم تعريفنا لهذا العلم إلا إذا شرحنا معنى كلمة « مجتمعات » وبينا نوع الظواهر التى تصادفنا فيها . وهـــذا هو ما نرجو تحديده فى هذا الفصل . فسنبين أن المجتمعات ليست شيئا آخر غير مركبات من « الظواهر الاجتماعية des faits sociaux وأن هذه الظواهر إنما هى فى الواقع الموضوع الأساسى والغرض الأخير من دراسة علم الاجتماع .

١ — معنى المجتمعـــات

حقيقة إن المجتمع لا يخرج عن كونه طائفة من الناس مجتمعين أو هو على حد قول سبنسر مجموعة من الوحدات الإنسانية . ولكن ذلك لا يعدو أن يكون علامة خارجية. والأفضل لنا أن نقول كما قال منذ قرنين ماندفيل Mandeville الذى وضع كتيبا بعنوان « أسطورة النحل La fable des abeilles » إن كل مجتمع يتضمن نوعا من التنظيم تحت رقابة سلطة ما . ومعنى ذلك

أن العامل الأساسى الذى يضفى على اجتماع الناس بصفة دائمة أو فى مناسبات معينة صفة المجتمع هو اتباعهم لقواعد واصطلاحات واحدة تفرض عليهم عن طريق قوة خارجة عنهم يدينون لها بالخضوع والطاعة . فهناك إذن سلطة autorité تنظم أحوالهم : هى هذه القوة المسيطرة والرغبة العنيدة « le voeu têtu » التى تكلم عنها الشاعر فرلين Verlaine . وليس هناك اليوم من يعتقد ـ كما اعتقد كثير من الكتاب منذ عهد مونتى Montaigne

أن هناك مجتمعا مهما كان فى طور الوحشية أو البداوة قد استطاع أن يعيش بدون قوانين فانه لا يوجد أبدا أو على الأصح لم يوجد أبدا مجتمع « لا شكل له » فلكل مجتمع عاداته المميزة له واصطلاحاته المتفق عليها وقوانينه المرعية. والسلطة أو القوة المسيطرة هى العامل الذى يحقق الوحدة ويضمن البقاء للمجتمعات. ولا شك أن مصادر هذه القوانين وطرق تطبيقها عديدة ومختلفة ويتعين علينا أن نصنفها بعد قليل. وسواء أكانت السلطة تتمثل فى النفوذ الذى يتمتع به المسنون والشيوخ أو فى الثقة التى يضعها الناس فى رؤسائهم أو فى قوة القانون أو فى ضغط الرأى العام أو فى جبرية العادات ، فلا يهمنا هنا أن نعرف من أين يأتى الضغط وحسبنا أن نقرر وجوده فالناس حين يجتمعون داخل نطاق المجتمع لا يتمتعون بحريتهم الكاملة. والاصطلاح والعادة كثيرا ما يطغيان على حكم العقل(١) وقد عبر مونتنى عن ذلك أصدق تعبير بقوله : « إن قوانين الضمير التى نعتقد أنها وليدة الطبيعة انما تنشأ فى الواقع عن العادة. فكل امرىء يعتنق ويقدس فى داخلية نفسه الآراء والمعتقدات التى يوافق عليها ويقبلها الناس من حوله. وهو لا يستطيع أن يتخلى عنها دون أن ينتابه القلق كما أنه يشعر حين يلتزمها بالغبطة والسعادة. » فقاعدة الحياة فى المجتمع هى الطاعة وما من مجتمع إلا ويشبه فى كثير أو قليل نظام الدير. وقد لاحظ تين Taine ذلك ودونه فى مذكرات ظلت مدة طويلة دون أن تنشر (٢) فقال إن

---

(١) يستطيع القارىء أن يستفيد فى هذه الناحية بقراءة الفصل الثانى والعشرين من الكتاب الأول من : « محاولات مونتنى » Les Essais. وهذا الفصل يعالج موضوع العادات « De la coustume » ويعنى مونتنى بهذه الكلمة العادة الشخصية والاصطلاح الجمعى

(٢) أنظر حياة تين ورسائله

H. Taine, *Sa vie et sa correspondance*, in-16o., III, P. 337 et seq., 1905.

الشرط الذى يحقق ظاهرة التجمع « هو كبح النفس عن طريق ذاتى أو عن طريق الغير » . ويمكن تلخيص هذه العبارة فى كلمة واحدة : الجبرية La Contrainte . فالمجتمع فى حاجة دائمة لهـذه الجبرية ليتغلب بها على الأنانية والفوضى . ولابد لتأسيس النظام والاحتفاظ به داخل نطاق المجتمع من أن يقبل الناس ويخضعوا لأنواع الجبر القانونية والفعلية . وقد عبر دروكيم عن ذلك أصدق تعبير حين جعل من الجبرية التى تضغط على الفرد العلامة المميزة والصفة التابعة لكل جماعة انسانية . وإنى شخصيا أفضل كلمة السلطة متبعا رأى الشيخ ماندفيل فانها أقل شدة ويمكن أن تكون أكثر قبولا . فهى تعبر عن الحرج الذى لا نستطيع تحديده فى حالة الإخلال بما يرسمه العرف والأوضاع الاجتماعية كما أنها تعبر أيضا عن قوة القانون الشديدة الوطأة .

يمكن اذن ان نعرف المجتمع بأنه : مجموعة من الناس يخضعون لسلطة واحدة وهناك تعريف آخر يتفرع عنه وهو : مجموعة من الناس يسيرون وفق نظم واصطلاحات usages واحدة . فبمجرد أن تنشأ بين الناس قواعد مشتركة ويتبعوا طرائق واحدة وتوجد بينهم وحدة فى التفكير والعمل فانهم يكونون مجتمعا .

هذه الاصطلاحات المشتركة التى تتكرر وتتضاعف والتى تعبر عن السلطة المفروضة أو المقبولة عن طيب خاطر هى بالضبط ما نسميه « بالظواهر الاجتماعية » . فالمجتمع هو الوسط المختار الذى تنشأ فيه الظواهر الاجتماعية .

٢ — معنى الظواهر الاجتماعية

نستطيع إذن ان نطلق إسم « الظواهر الاجتماعية » على المظهر المتحد فى الأفكار وفى طريقة الحياة الذى ينشأ بين الناس مجتمعين . ويمكن استعمال

كلمة أخرى أكثر دقة فنقول إن « الظواهر الاجتماعية هى التوافق la conformité الذى يظهر فى السلوك « والتصرفات » بين طوائف الناس المختلفة .(١) » ومعنى ذلك ـ كما يبده تارد Tarde بوضوح ـ أن التكرار أساس كل ما هو اجتماعى وقد كتبت منذ عهد بعيد(٢) « أن الحدث الاجتماعى لا يمكن أن يكون حدثا مبتكرا وإنما هو حدث متكرر . وحتى إذا قام بهذا الحدث فرد واحد فانه يكون قد استخلص عناصره من الوسط الذى يعيش فيه أو من أفراد آخرين . وهو حين يقوم به يلتزم قاعدة ثابتة تعوقه عن أداء حركاته بحرية مطلقة . ولذلك فان الاختراع الفردى لايعد ظاهرة اجتماعية وهو لايصبح كذلك إلا عن طريق التكرار. فالصفة الأساسية إذن للظواهر الاجتماعية هى أنها عامة des faits généraux أو هى قواعد للسلوك مشتركة بين عدد وفير من الأفراد . ولا يشترط فى الظواهر الاجتماعية أن يقوم الناس بأدائها كمجموعة وإنما يشترط فقط لوجودها أن يكون هناك مجموعة . فالعقد والشعيرة الدينية ظواهر اجتماعية إذ يتولد عنهما شعائر أخرى وعقود أخرى وهما بمثابة نموذج أو أصل تستخرج منه نسخ عديدة . »

نقول إن الظاهرة الاجتماعية ظاهرة عامة: فاتفاق الناس فى الزى واتباعهم لطرق واحدة فى العمل واتفاقهم على ما يفضلون وما ينبذون كل هذه ظواهر اجتماعية . فالاجتماعى والشخصى على طرفى نقيض وهما يتعارضان كما يتعارض العام والخاص . وصفة العمومية والذيوع صفة جوهرية فى

---

(١) كلمة Conformisme التى تستخدم أحيانا فى هذا الغرض كلمة نابية .

(٢) أنظر كتاب المؤلف عن : الاقتصاد السياسى وعلم الاجتماع .
R. Maunier: L'économie politique et la sociologie, in-16o., P. 4, 1910.

تحديد طبيعة الظاهرة الاجتماعية . والحياة فى المجتمع لا تتيسر إلا بشرط أن يتنازل الأفراد كل عن وجهة نظره الخاصة . وأنت لا تكون اجتماعياً أو ذا قابلية لحياة المجتمع « Sociable » إلا إذا كنت طيعا سلس القياد .

وهناك نتيجة كبرى تترتب على ذلك : فالظواهر الاجتماعية يجب أن تكون قابلة للعد . إذ أن تكرارها وتعددها معناه أن لها صفة عددية أو إحصائية . وكلما زاد تكرار الظواهر الاجتماعية كلما كان ذلك دليلا على قوة الاندماج فى الحياة المشتركة وتعبيراً واضحا عن الخضوع لسلطة المجتمع . فالقابلية الاجتماعية تزداد كلما ازداد الدور الذى يلعبه القانون المسمى بقانون الأعداد الكبيرة La loi de grands nombres . وهكذا نرى أنه لا بد لعلم الاجتماع من أن يستعين إلى حد كبير بعلم الاحصاء .

وقد عبر الأستاذان موس Mauss وفوكونيه Fauconnet بطريقة أخرى عن هذه الفكرة فيما كتباه تحت مادة « اجتماع » فى الموسوعة الكبرى ويعد هذا المقال مرجعا أساسيا من مراجع علم الاجتماع فقد ذكرا أن الظواهر الاجتماعية عادات جمعية habitudes collectives تراعى بين الناس ويظهر فى هذا التعبير الميل إلى الحكم عن مصدر أو سبب التوافق الذى يلاحظ بين الكائنات الانسانية . ولكن سواء أكان هذا المصدر فى الغريزة العمياء أو فى العادة اللاشعورية أو فى التقليد الذى يطاع ويحترم أو فى الحكم الصادر عن التروى فكل هذه المصادر تدخل فى موضوع بحثنا . ولذلك يستحسن أن نقول : اصطلاح usage - طريقة manière, façon هوى guise - مسلك عملى pratique - عرف coutume - تقليد tradition قاعدة régle - قانون loi : كل هذه كلمات لا تستدعى الرجوع إلى علم الحياة أو علم النفس . وكلمة اصطلاح usage فيما أعتقد أقربها جميعا إلى الأفهام . ويحسن بنا أن نتحرز بالمثل من التعريف الذى عرف به باول J. W. Powell علم الاجتماع فقد عرفه بأنه « علم النظم La science des institutions »

فالنظم بالمعنى الدقيق لهـــذه الكلمة اصطلاحات تم لها التقرير والتنظيم ولا يمكن أن نقصر عليهـــا موضوع علم الاجتماع . فهناك اصطلاحات أخرى عامة كالشعائر الدينية والتيـــارات الخلقية ومراسم « الاتيكيت » وقد لا تتخذ هذه الاصطلاحات فى غالب الأحيان شكلا محدداً أو قد لا تصاغ فى صيغة قانونية وتعلن بين الجميع بصفة رسمية أو قد لا تتخذ المظهر النهائى الثابت ومع ذلك فان هذه الاصطلاحات التى يصطلح عليها الناس وتفهم بأوسع معانيها هى الموضـــوع الحقيقى لعلم الاجتماع .

والخلاصة أننا إذا قلنا مجتمع فانما نقول توافق ، واشتراك ، وسلطة (١) ويجب أن نلاحظ جيدا أن اتفاق النـــاس أو أشتراكهم فى القواعد والاصطلاحات يسير حسب اتجاهات مختلفة . والتوافق يكون إما فى الزمان أو فى المكان .

فالتوافق فى الزمان هو وحدة التقاليد : فالناس يعملون ويفكرون كما كان يعمل ويفكر من يكبرونهم فى السن وانتقال الآراء عن طريق التقاليد وعن طريق التربية ظاهرة اجتماعية بطبيعتها . واشتراك الأجيال المتعاقبة فى المعتقدات وطريقة الحياة واستمرار ذلك خلال الزمن يضمن الاتصال للحياة الجمعية . على أنه يجب علينا أن نقرر أن سلطة التقاليد ليست ولا يجب أن تكون سلطة مطلقة . فلا يوجد مجتمع على حالة واحدة من الجمود . والتوافق يصطبغ دائما بلون من التنوع . فالتقاليد لاتمنع التطور . وحتى أبسط أنواع الجماعات الانسانية قد مرت بتطورات بل بثورات (٢)

---

(١) أنظر تحليل هذه المعانى الثلاثة فى كتاب مونييه :

Société, c'est conformité, communauté, autorité. Essais sur les groupements sociaux, in-16o., Chap. 1er., 1929.

(٢) أنظر كتاب سمنرمين فى تاريخ النظم البدائية :

Sumner Maine, Etudes sur l'histoire des institutions primitives, in-8o., P. III et seq., 1880.

روح المحافظة مع القابلية للتطور : هذان هما العاملان الأساسيان فى حياة المجتمعات . فيجب إذن أن تظل التقاليد باقية مع شىء من المرونة التى تسمح بالتطور .

ويظهر التوافق من ناحية أخرى بالنسبة للمكان فيكون حينئذ الاصطلاح بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة أو ما يعبر عنه الفرنسيون بكلمة la mode ففى زمن معين يسير عدد قل أو كثر من الناس وفق طرائق واحدة فى مساحات نستطيع تحديدها . فلهجة التخاطب واختيار الزى والذوق فى بناء المسكن وتأثيثه والتمسك بمعتقدات خاصة أو الخضوع لآراء متسلطة préjugés كل ذلك نستطيع تمييزه داخل نطاقات معينة . وكما أن التوافق ليس مطلقا بالنسبة للزمان فهو أيضا ليس مطلقا بالنسبة للمكان وإلا فان الانسانية جمعاء تصبح جسما واحدا . ولكن الاصطلاحات من شأنها أن تكون محلية بحيث تنحصر داخل حدود نستطيع رسمها . فهناك اصطلاحات خاصة باقليم معين واصطلاحات تعم فى الدولة بأكملها كما أن هناك اصطلاحات عالمية . وقد يضيق الاصطلاح فلا يتعدى نطاق الطائفة المهنية أو نطاق الأسرة فلكل طائفة مهنية ولكل أسرة كما يشاهد كثيرا طريقتها الخاصة فى التفكير وفى المعيشة . وهذا القول ينطبق تماما على كل قرية وكل مدينة وكل أمة . كما ينطبق أيضا على مجتمعات الطبقة الراقية والمحافل الخاصة وكلما اتسع نطاق المجتمع ، كلما قل عدد حالات التشابه التام التى نلاحظها فيه

ويمكن النظر إلى الجماعات التى تتفق فى وحدة الاصلاح والتى تسير وفق تقاليد واحدة وتتحد فى المزاج وفى النهج الذى تسير عليه فى الحياة

= وأقرأ فى التطور الاجتماعى كتاب اجبورن :

W. F. Ogburn, Social change, with respect to culture..., in-16o., 1923.

على أن لها حضارة مشتركة(١) . وعلى ذلك فالحضارة قبل كل شيء ظاهرة جغرافية تتحدد بالمكان . ونحن نسمع اليوم عن وجود مناطق أو دوائر ثقافية cercles de culture تسود فيها آراء واحدة ووسائل عملية واحدة تجعل من كل منها عالماً منفصلا . وقد أطلق عالم الأتنولوجيا أدولف بستيان Bastian على ذلك إسم الأقاليم الجغرافية Les provinces géographiques ويعول البعض فى وقتنا الحاضر أهمية كبيرة على تحديد هذه الأقاليم (٢) ويكفى من جهتنا على الأقل أن نعترف بوجودها وبأنها تتميز بوضوح تام فى مجال العقائد والآراء . ولنتذكر دائما قول بسكال المشهور . « إن مايعد حقيقة فى حدود البرانس قد يعد ضلالا فيما ورائها Vérité en deça des Pyrénées, erreur au delà »

وسواء اختص الأمر بتقاليد أو بتقليد (محاكاة) وسواء أكان التوافق فى الزمان أو فى المكان أو فيهما معا فانه على كل حال ظاهرة تستحق منا أن نقررها لأهميتها والتوافق معناه توافق بين أفراد جماعة واحدة وبالتالى اختلاف diversité من جماعة إلى أخرى . وهذا الاختلاف من مجتمع إلى

---

(١) أنظر فى المعنى الجوهرى لكلمة حضارة :
Année Sociologique, XII, P. 46-50.

(٢) إقرأ فى هذا الموضوع مثلا كتاب :
Pinard de la Boullaye, L'étude comparée des religions, I, in-8o., P. 396-404, 503, 1922.

حيث تجد ملخصاً لأبحاث جريبنر Graebner ، شميدت W. Schmidt عن الدوائر الثقافية Kulturkreise .

وأقرأ أيضاً بحث شميدت P. Schmidt فى ملحق المجلة الأسبوعية الاتنولوجيا الدينية :
La semaine internationale d'ethnologie religieuse, IVe. session, in-8o., 1927.

آخر هو أول ما يجذب نظر المسافر أو السائح أو الصحفى فهؤلاء جميعا لا يسترعى اهتمامهم فى الغالب إلا المظهر الخارجى . وقد نعتقد مثلا أن اختيار الزى يعبر عن حاجة طبيعية صرفة مصدرها الحياء والبحث عن الراحة ومع ذلك فهذا الاختيار إنما هو ظاهرة اجتماعية . فالزى ينتقل بين الناس ويعم بينهم وهو قبل كل شىء أمر يتصل بالتعود . وهناك لباس العمل ولباس الحفلات ولباس الحداد كما أن هناك لباسا إقليمياً ولباسا وطنياً . وكل هذه أشياء ينظمها ويصطلح عليها الرأى العام ولا يستطيع الفرد أن يتصرف فيها بحرية مطلقة . وما يصدق على الزى يصدق تقريباً على كل ما يقوم به المرء من أفعال فى الحياة . وحتى هندسة البناء نفسها قد تتبع أساليب خاصة بحكم العادة أو التقاليد وقد تكون هذه الأساليب فى غالب الأحيان مما لا يتفق مع المناخ أو يخضع لحكم الحاجة . وقد تكون طريقة الطهى محلية أو وطنية ولكنها نادراً ما تكون فردية . وهكذا نستطيع أن نبين حين نتجه من المظاهر الخارجية نحو لب الأشياء أن العادات الخلقية والقانون وحتى المنطق نفسه أشياء يحددها الرأى العام ، ومن الأشياء الواضحة التى لا تحتاج إلى جهد لاثباتها أننا لسنا دائماً أحراراً لا فى ألصق معتقداتنا بذاتيتنا ولا فى أفعالنا ولا فى حركاتنا . ونحن لا نستطيع أن نولد أو نموت أو نرث أو نتعاقد أو نتغدى أو نلبس إلا إذا خضعنا فى ذلك كله لسلطان القانون أو على الاقل لحكم التقاليد والعرف .

ويمكننا أن نستخلص من كل ذلك أن التوافق وهو الصفة اللازمة للحياة الجمعية يؤثر فى الافراد بطريقتين . فهو أولا ينظم بينهم العمل ووسائل السلوك وطرائق التصرف وتتصل هذه الاشياء بما يسمى بالنواحى العملية فى حياة الانسان les pratiques . ولكن التوافق ينصب أيضا على طرق التفكير ووسائل الحكم وطرائق التعقل وهذه تتصل بناحية المعتقدات

les coyances فالتوافق يشمل الافعال وأنواع المعرفة . بل إننا نستطيع القول إن التوافق فى المظهر الخارجى يأتى عن طريق التأثير على القوة الداخلية أى النفسية .

فالحياة فى المجتمع هى إذن وقبل كل شىء اتفاق فى الافعال والافكار ، فى وسائل العمل وطرائق المعرفة . هذا الاتفاق ينم دائماً عن وجود نوع من السلطة .

٣ ـ جزاءات الظواهر الاجتماعيه

عرفنا أن فكرة القانون بالمعنى الواسع الذى تكلمنا عنه هى العنصر الاساسى فى الظاهرة الاجتماعية . فما هى إذن قيمة هذا القانون ومدى قوته؟ هذا القهر الاجتماعى الذى يتحمله الافراد طوعا أو كرها كيف يضمن لنفسه قوة النفاذ ؟ وهذه السلطة التى يجب أن تسود فى المجتمع كيف تتحقق لها السيادة ؟ هل هناك من الجزاءات ما يكفل لها ذلك ؟

إن الجزاء الاجتماعى موجود بالفعل وله أشكال متعددة وسوف نحدد الآن مظاهره المختلفة .

من المشاهد أن الظواهر الاجتماعية تختلف من حيث قوة التركيز . فمنها ما أمر به العقيدة ومنها ما يفرضه القانون ومنها ما ينظمه الرأى العام ومنها أخيراً ما تترك فيه الحرية تقريباً ويكتفى فيه بمجرد الاقتراح والنصح لا الإلزام . وهكذا نجد أمامنا ثلاث درجات لصفة التوافق بين الظواهر الاجتماعية . وتقع بين هذه الدرجات أشكال من التفاوت البسيط nuances لا حصر لها . فهناك ما يفرض l'imposé وهناك ما يصطلح عليه l'usité وهناك ما يقبل l'accepté وهناك ما يتسامح فيه le toléré . هناك الالزام وهناك التقاليد وهناك اتجاه الرأى العام . وهذه الاشكال الكبرى تحصر بينها ـ كما قلنا ـ عدداً لا حصر له من أشكال التفاوت . والمسافة شاسعة بين ما يفرض وما يمنع ، بين ما يباح ومالا يباح . وتحد حرية المرء كثيراً أو قليلا بحسب الحالات . هناك جزاءات تضمن تفوق العام على الخاص وإن اختلفت هذه الجزاءات من حيث قوتها وطريقة تطبيقها . وأكاد أتبين منها أربعة أنواع .

فهناك أولا الجزاء الدينى mystique ففى مجتمعات كثيرة يقوم احترام

القانون على العقيدة ومن يتخطى القانون يكون قد اقترف إثما un péché-sin ويتعين على التكفير l'expiation عن هذا الإثم. وهو بذلك يكون قد تعرض لغضب الآلهة وفقد طهره وهناءته وأصبح مدنسا وقد يحكم عليه بالطرد من حظيرة المجتمع. فاذا أكل المرء ما حرم عليه من الطعام أو تطلع بصره لما لا يجب عليه أن يراه أو أباح لنفسه الزواج من الأقارب المحارم دخل فى عداد الآثمين وأستحق الجزاء الدينى وعقاب الآلهة والأرواح. وقد تلاحق هذه الفكرة الشخص وتستحوذ على عقـــله حتى تدفع به فى أحيان كثيرة إلى الانتحار أو إلى الموت فزعاً(١). فان نيمينيس Néménis تلاحق من يخرق حرمة القوانين الدينية*.

يأتى بعد ذلك الجزاء التشريعى La sanction juridique: فالاصطلاحات والأوضاع الاجتماعية غالباً ما تقرر إما عن طريق العرف الشفوى أو عن طريق القانون المكتوب. وخرق ما نص عليه القانون يستدعى توقيع العقوبة القانونية. ويسمى الخروج على القانون فى هذه الحالة جريمة أو جنحة délit تستوجب عقاباً punition أو على الأقل إصلاح ما فسد أو تعويضـــه réparation. ومعنى ذلك فى كلا الحالين جزاء مادى يوقع على المعتدى عن طريق تطبيق القانون. وفى قوانيننا الحديثة يفصل بين نوعين من الجرائم لم يكن يفرق بينهما فى الماضى. فهناك الجرم الجنائى délit pénal

---

(١) ذكر مارسيل موس Mauss حالات غريبة عن: التأثير الطبيعى الذى تحدثه فكرة الموت عن طريق الإيحاء الجمعى. راجع مقاله:

Effet physique chez l'individu de l'idée de mort suggérée par la collectivité; Journal de Psychologie, XXIII, P. 653-669, 15 Juin 1926.

* فى الميثولوجيا الإغريقية نيمينيس إلهة الانتقام وتوزيع العدالة وهى تمثل القانون العادل الذى يحارب كل افراط. (ملاحظة المترجم).

وجزاؤه العقوبة البدنية أو الغرامة وهناك الجرم المدنى délit civil وجزاؤه المطالبة بالإصلاح أو التعويض إذا لحق ضرر بشخص ما من جراء إساءة الغير لاستعمال الحقوق المقررة .

والجزاء القانونى على كل حال وسيلة خارجية لضغط النظم الاجتماعية فالخوف من توقيع العقوبة أو المطالبة بالإصـــلاح قوة تدفع بالمرء إلى الخضوع للقوانين .

ويأتى بعد ذلك الجزاء الخلقى Sanction éthique ou morale : فلا يخلو مجتمع من كثير من القواعد التى لا تخضع لا للعقيدة ولا للقانون : وعدم مراعاة هذه القواعد لا يعد إثما ولا جريمة ولكنه خطأ خلقى وفيه مساس بالشرف . ويستحق مقترف هذا الخطأ اللوم والتقريع le blâme من جانب الرأى العام . فهذا الخطأ لايستدعى إذن تكفيراً أو عقاباً ولكنه يثير السخط والاستنكار réprobation الذى تختلف قوته بحسب الحالات وقد يصل أحياناً إلى حد الاضطهاد persécution . ونحن ندرك جيداً أن سلطة هذا الجزاء لا يستهان بها . ونلاحظ جيداً أن فكرة الشرف بين المسلمين فى الجزائر (nif ou horma) دافع قوى للتمسك بالآراء والعادات العرفية . والمرء حين لا يراعى القانون الخلقى يفقد شرفه وذلك أخوف مايخافه الناس . وليس ذلك مظهرا من مظاهر الماضى فان هذه العاطفة مازالت قوية جدا بين الهيئات والنقابات المهنية . والعادة الشائعة فى هذه الأوساط هى التشهير والنبذ " Mise à l'index " – au ban لكل من يخل بشرف المهنة (١) ومن ذلك نرى أن الجزاء الخلقى قد يكون له أحياناً نتائج مادية . ولكن قسوته الحقيقية قوة ذاتية فمجرد الخوف من احتقار الناس قد يكون أحياناً أقوى من الخوف من القوانين . ويعتقد الذين على الفطرة أى الذين لم يفسدهم زخرف الحضارة أن فقدان الشرف معناه فقدان السعادة . وستظل

(١) سوف نتأكد من قوة العرف والتقـــاليد فى الطوائف المهنية حين نتصفح كتاب مكسيم لوروا :
Maxime Leroy: La coutume ouvrière, 2 Vol., in-8o., 1913.

هذه الفكرة محتفظة بقوتها الذاتية بالرغم من كل شيء . فالنفي الخلقي أكبر عامل على الاحتفاظ بالفضيلة .

وآخر أنواع الجزاءات هو الجزاء التهكمي La Sanctin satirique : وأعني بهذه التسمية أخف المظاهر التي يعلن بها المجتمع عن سلطته . فهناك كثير من الأوضاع التي قد لا يحترمها الانسان وعلى الأخص في وسائل الحياة المادية دون أن يتعرض بذلك للاتهام بأنه قد أخطأ أو ارتكب جرما أو اقترف إثما . ولكن عدم مراعاة هذه الأوضـــاع قد يعرض المرء للسخرية le ridicule فانفراد المرء بطريقة خاصة ورغبته في الظهور بمظهر غير مألوف يوصمانه بالوقاحة والجرأة ويعرضانه للتهكم والاستهزاء به ومعناه الانحراف عن المألوف نحو الشذوذ والتبذل. ولكن ذلك الشذوذ لا يستدعي تكفيراً أو عقاباً ولا يجر على صاحبه حتى مجرد السخط . وإنما يثير فقط نوعاً من الامتعاض والاستهجان depréciation . فهناك من الأفعـــال ما يعرض للسخريه ويفتح مجالا للنقد والتهكم إذا وصل إلى حد المبالغة : من ذلك الاندفاع في تيار (الموضة) وحب الظهور Snobisme والتحذلق في أختيار الألفاظ أو الحركات (١). ولكل طائفة قواعد التأدب التي تراعى فيها أو ما يسمونه « الإتيكيت » . فالقواعد التي تتبع في محافل الملوك غير القواعد التي تتبع بين أفراد الطبقة البورجوازية . وقد ألف بعضهم كتاباً

---

(١) هناك كتاب قديم للأب بلجارد Bellegarde ، جمع بين السذاجة والطرافة وقد احتوى هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من « الحالات » التي تعرض المرء للسخرية وعنوانه : Réflexions sur le ridicule et sur les moyens de l'éviter, in 16°, 4ᵉ éd,. 1700.

يقول هذا الأب الطيب القلب « لاشك أن المرء يصبح عدوا للنظام إذا انفرد بذوق خاص ولم يحذ حذو الآخرين » . ويقول أيضا « إن التصرفات غير المألوفة مهما ، كان نوعها ، تصدم دائما . » وقد أدت الدراسات في هـذا المجال إلى ظهور مؤلفـات في « قواعد التأدب les civilités » أشهرها كتاب إرازم Erasame (nouvelle édition chez Liseux, in-16, avec Bibliographie, 1877)

فى قواعد التأدب بين رجال الكنيسة . وقد نجهل هذه القواعد فنظهر بمظهر غير لائق أو غير مستساغ دون أن نكون محتقرين أو مرذولين . وقد نثير الضحك والسخرية دون أن يكون ذلك داعيا إلى مقتنا . وقد نستحق أن ننبه بلطف إلى خطئنا دون أن نتعرض لكراهية الناس لنا . وقد يكون الخطأ الذى نرتكبه طفيفاً بحيث لا يثير إلا ابتسامة ذات معنى . ولكن هل نحن فى حاجة لان نبين قوة الضحك أو الابتسامة كعامل يدفع للدخول فى حظيرة المجتمع ؟ قد تكفى فى غالب الاحيان ملاحظة عابرة لإخفاء معالم زينة غير مألوفة أو مظهر وقح أو تعبير مبتذل. والجرىء تحدمن جرأته نظرة استهجان وتوقفه عند حده . على أنه يجب ألا ننسى أن حدود الجرأة وحدود الادب نسبية محضة وتختلف بحسب المجتمعات . ففى البلاد الإســـلامية لا يثير (التجشؤ) أى لوم بل على العكس قد يمتدح . وهناك نظم مألوفة يعمل بها فى كل مجتمع والتمرد على هذه النظم لايعنى أكثر من الخروج على القاعدة . فاتيان ما هو خارج عن المألوف من شأنه أن يبعث فى ذاته على النفور .

التكفير ، والعقاب ، والسخط ، والاستهجان ، هذه هى درجات أو أشكال الجزاء الذى يتصل بالظواهر الاجتماعية . فماذا يتبقى بعـــد ذلك من حرية للانسان أو حتى من حرية تتعلق بداخلية نفسه ؟ هناك قليل من الحرية على ما يظهر يتمتع به من لم ينل حظا وفيرا من التهذيب . أما الرجل العادى فان آراءه وأفعاله يوحى إليه بها ويدفعه إليها المجتمع. فشخصية المرء ليست إلا مظهراً وخيالا . وإذا حاد عن الطريق الذى رسمه له المجتمع فانه يتعرض للجزاءات التى غالباً ما تتجمع فى وقت واحد . وهكذا تتحدد لدينا الصفة الجوهرية للتصرفات الجمعية : فالظواهر الاجتماعية أوضـــاع واصطلاحات يترتب على الاخلال بها أنواع من الجزاءات .

الفصل الثالث

تقسيم الظواهر الاجتماعية

أولا : الجماعات الانسانية

بينا فيما تقدم أن علم الاجتماع إنما هو دراسة مقارنة للمجتمعات وبالتالى للظواهر الاجتماعية . فموضوعه يتضمن وصف الأوضاع والاصطلاحات الجمعية ومحاولة فهمها وتعليلها . وتكلمنا أيضاً عما يترتب على الخروج على هذه الأوضاع من أنواع الجزاءات المختلفة . وقد توصلنا حتى الآن إلى بيان ما للظواهر الاجتماعية من صفات عامة توحد بينها . واستطعنا أن نخلص من ذلك إلى صفتين أساسيتين : صفة التكرار وصفة الإلزام بدرجاته المختلفة . وما التكرار فى الواقع إلا نتيجة للإلزام . والتوافق بين الناس ثمرة من ثمار سلطة المجتمع . ويمكن القول إن الظواهر الاجتماعية آراء وأفعال تصاغ فى « أسلوب واحد » . ومع ذلك فقد بدأنا بالفعل نشعر أثناء كلامنا عن الجزاءات أن هذه الظواهر تختلف فى طبيعتها ونتائجها . وعلى ذلك يجب علينا أن نحصى أجناسها وأنواعها وأن نقوم بعمل تصنيف لها .

فالوسائل التى اصطلح عليها الناس أو قبلوها ليعيشوا عيشة جمعية - وهى ما نسميه بالظواهر الاجتماعية - ليست كلها من نوع واحد : فمن أنواع التجمع : الفرق الدينية Sectes ، والأحزاب السياسية والنقابات العمالية . ومن العمليات الاجتماعية : أداء الشعائر ، والتعاقد ، والعمل . أليست هذه كلها ظواهر لها مميزاتها وطابعها الخاص ؟ فالواجب يقضى علينا إذن أن نحاول تنظيمها فى وحدات متجانسة .

ونحن نستطيع أن نستعين فى هذا المجال بنتائج البيولوجيا وليس معنى ذلك أنه يجب علينا أن نطبق على المجتمعات كل ما نعرفه أو ما نعتقد أننا نعرفه عن الكائنات الحية كما هو الحال عند المتشيعين للمذهب العضوى la doctrine organiciste . ولكن كل ما نريده هو تطبيق منهج مماثل وترتيب معلوماتنا داخل إطار مشابه .

فنحن نميز بالنسبة للكائنات الحية بين الأعضاء les organes والوظائف les fonctions . فلكل من أجزاء الجسم الحى شكله الخاص ونشاطه الخاص ومنفعته الخاصة . فتركيب الأجزاء يختلف ، وتختلف أيضاً وظائفها . ولذلك فاننا نميز بين التشريح أو علم الأشكال la morphologie وهو دراسة الأعضاء ، وبين الفسيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء. وبالمثل بالنسبة للمجتمعات : هناك أعضاء أو عناصر أو أجزاء لجسم المجتمع وهى ما يطلق عليها الوحدات أو الطوائف الاجتماعية les groupements sociaux وهناك من ناحية أخرى أنواع من النشاط أو العمليات أو الوظائف تمارسها هذه الطوائف ونستطيع أن نسميها التصرفات الجمعية les comportements .

فهناك من ناحية الوحدات الاجتماعية ومن ناحية أخرى التصرفات الاجتماعية . وهذان هما القسمان الكبيران لتصنيف الظواهر الاجتماعية . وقد تكلم المصلح سان سيمون كما قدمنا وكذلك جان بابتيست سي Jean-Baptiste Say عن « فسيولوجيا المجتمعات » . كما أن وليم بتى Petty كان قد تكلم قبلهما بأكثر من قرن عن « التشريح السياسى anatomie politique » . يمكن إذن تقسيم الدراسة الاجتماعية إلى قسمين كبيرين : المورفولوجيا الاجتماعية أو دراسة الأعضاء ، والفسيولوجيا الاجتماعية أو دراسة الوظائف . فلنتصرف الآن إلى الكلام عن مضمون هذين النوعين

من الدراسات وتحديد فروعهما . وسنبدأ هذا العمل أولا بالنسبة لأنواع الجماعات الإنسانية وبعد ذلك بالنسبة لأنواع التصرفات الإنسانية .

* * *

ما من مجتمع فى الحاضر أو فى الماضى - حتى المتوحش من المجتمعات - إلا ويتألف من مجموعات groupes أو تقسيمات فرعية sous-groupes ومعنى ذلك أن المجتمع وحدة مركبة أو معقدة . وقد أطلق دوركيم اسم المجموعات الثانوية groupes scondaires على هذه الأجزاء التى يتكون منها المجتمع . فليس هناك مجتمع بسيط وحتى القبائل التى نسميها « متوحشة » فانها وحدات مركبة : أى أنها تنقسم إلى مجموعات صغيرة نسميها الأسر أو العشائر «clans» وهذه الكلمة الأخيرة مأخوذة من أصل اسكوتلندى . فالتركيب أو التعقيد قانون كل حياة والخلية نفسها عالم ذاخر . وهناك من الأمثال الموروثة عند بعض الشعوب ما ينهض دليلا على ذلك . فالبربر (les kabyles) من سكان الجزائر يشبهون القبيلة بثمرة الخروب التى تحتوى على بذور كثيرة العدد ، هذه البذور هى الأسر . وقد شبه البدائيون متجمعاتهم بالكائنات أو الأجسام الحية ومعنى ذلك أنها متعددة الأجـــزاء . وإذا كان الحال كذلك بالنسبة للمجتمعات الصغيرة فلا بد أن تكون المجتمعات الكبيرة التى نعيش فيها الان على درجة عظيمة من التعقيد . ونحن نستطيع أن نشاهد فيها عدداً كبيراً من المجموعات والتقسيمات الصغيرة مختلفة الأنواع : فالأسر والقرى ، والمناطق والمدن ، والأقاليم والدول ، والطوائف المهنية ، والفرق الدينية ، والجمعيات كل هذه مجموعات أو أجزاء يختلط بعضهـــا بالبعض ويتداخل بعضها فى البعض الآخر ، كأنها دوامة كبيرة تنبعث منها حركة دائمـــة .

من ذلك نرى أن هناك أشكالا كثيرة لأنواع التجمع الإنسانى . وقد فطن إلى ذلك الفيلسوف العربى الفارابى الذى استقر فى مدينة حلب فى القرن العاشر . فقد عدد فى مقالة له أنواع التجمع وميز بينها من حيث الأسباب ومن حيث البواعث : فهناك جماعات تنشأ عن الرغبة الحرة وجماعات أساسها الضغط . كما أن الميلاد والزواج والإقامة والخطر والبهجة وحتى السفر كل هذه أسباب تنشأ عنها أنواع مختلفة من الجماعات . ولا شك أننا نستطيع أن نجمع هذه الحالات الخاصة فى أقسام كبيرة وأستطيع أن أميز ثلاثة من هذه الأقسام : الجماعات البيولوجية ، والجماعات الجغرافية ، والجماعات الاجتماعية .

١ — الجماعات البيولوجية

أعنى بالجماعة البيولوجية أو الانتروبولوجية كل جماعة يشترك أفرادها فى صفة طبيعية تربط بينهم . من ذلك الأسرة التى تتألف من أقارب يربط بينهم دم واحد وتتكون بينهم وحدة تنشأ عن هذا الرباط . ويترتب على ذلك حقوق وواجبات خاصة لا تتعدى نطاق الاسرة . فهذه المجموعة تقوم إذن على الاشتراك فى الدم والوحدة التى تجمعها صادرة عن ظاهرة طبيعية ومن هنا نفهم سر التسمية التى أطلقناها عليها . وهناك تقسيمات داخل نطاق الجماعة البيولوجية أهمها ما يتعلق بالجنس وبالسن وبنوع القرابة .

ففى كل مجتمع يكون كل جنس مجموعة على حدة . ولا يتفق الرجال والنساء لا فى العادات ولا فى الآراء التى تسيطر على عقولهم préjugés . وتختلف طباع وأمزجة كل فريق وغالباً ما تتعارض . فالمجموعة الجنسية لها إذن حياتها الخاصة ويظهر ذلك بوضوح فى المجتمعات البدائية إذ نلاحظ فيها الفصل التام بين نوع الحياة التى يحياها الذكور والإناث . فبين الجنسين

تعارض تام بل هوة عميقة : فلكل جنس أعماله وشعائره كما أنه ينفرد بوسائل معيشته وطرق تفكيره (١) . نحن لا ننكر أنه يجب أن يكون هناك نوع من التعاون بين الجنسين ما داما يكونان مجتمعاً واحداً . ولكن بالرغم من ذلك فالجنسان يكونان مجموعتين متميزتين مختلفتين بل ومتضادتين أحياناً ، وهذا خلاف ما بينهما عادة من فارق فى المرتبة .

وهناك بعد ذلك وحدة السن . فتقارب الأفراد فى السن وانتماؤهم إلى « جيل » واحد يجعل منهم مجموعة على حدة لها آراؤها ومصالحها وغالباً ما يصطدمون من أجل هذه الآراء والمصالح بالمجموعات التى تنتمى إلى أجيال أخرى . ونلاحظ ذلك كثيراً فى مجتمعاتنا الحالية : ألا يوجد بين رجال الأدب حلقات خاصة « بالشبان الأدباء » ؟ على أن هذه التفرقة تظهر بوضوح فى المجتمعات البدائية . ففى هذه المجتمعات يكون كل جيل وحدة مميزة لها قوانينها وتقاليدها وأسرارها . ولا يدخل المراهق فى مجتمع الرجال إلا بعد أن يمر بشعائر وطقوس معقدة تعرف باسم « شعائر الدخول فى حظيرة الرجال Rites d'initiation ou de passage » . وقد وجد عند قدماء اليونان نظام مماثل عن طريق التدريب العسكرى L'ephébie وينشأ عن اختلاف السن اختلاف فى الدرجة أو المرتبة : فالأطفال والشبان والشيوخ يؤلفون نوعاً من التدرج une hiérarchie بحيث تزداد الحقوق ومظاهر السلطة كلما صعدنا درجات السلم من أسفل إلى أعلى . وليس الشبان

---

(١) يمكن الرجوع إلى بعض الظواهر النموذجية حول هذا الموضوع فى أفريقيا الشمالية فى

Année Sociologique, nouvelle série II, P. 64-65, 1927.

أنظر أيضا بصفة عامة كتاب شورتز بالألمانية :

H. Schurtz : Altersklassen und Männerbünde in-8o., 1902.

المحاربون هم الزعماء بل إن الشيوخ هم الذين يتمتعون عادة بالنفوذ والسلطة. ويطلق علماء الاجتماع الإنجليز على هذه الظاهرة إسم « حكومة الشيوخ السحرية La gérontocratie magique » . فالسلطة فى مثل هذه الحكومات لا تقوم على القوة الجسمية بل على القوة الروحانية . وفى مجتمعاتنا الحالية من بقايا هذه النظم التى تتعلق بفروق السن ما يستحق الدراسة .

وأخيراً فان أنواع القرابة ينشأ عنها بالمثل وحدات إنسانية تقوم على نظام طبيعى . وقد أطلق عليها دوركيم إسم « الوحدات التى تقوم على الصلة الدموية groupements consanguins» . ودعامة هذه الوحدات الانحدار من سلالة واحدة وهناك أنواع مختلفة منها تختلف بحسب المجتمعات فالأسرة la famille والعشيرة le clan والقبيلة la tribu والاتحاد la phratrie ، والأسرة الرومانية gens والأسرة الجرمانية sippe ou sib كل هذه مجموعات تقوم على صلة الدم والطفل يدخل فى عداد إحداها منذ ولادته ولا يخرج منها إلا بالموت . وأعضاء هذه الوحدات ينحدرون أو على الأصح يعتقدون أنهم انحدروا عن جد واحد ancêtre commun وسواء أكان هذا الانحدار مقرراً أو مفروضاً أو كانت هذه السلالة حقيقية أو وهمية فان ذلك لا يؤثر فيما نحن بصدده من التقسيم . فاعتقاد الأفراد أو ادعاؤهم بأنهم انحدروا عن جد واحد يحملون اسمه على الدوام هو فى ذاته تعبير عن رغبتهم فى تكوين وحدة دموية . فالأسرة إذن ـ بما تتضمنه هذه الكلمة من اختلاف عظيم فى أشكالها (١) ـ تعد أهم

(١) وصف دوركيم تطور الأسرة أوعلى الأصح تطوراتها فى مجموعة من المحاضرات القيمة التى لم ينشر منها إلا أجزاء متفرقة . ويهم الجميع أن تطبع هذه المحاضرات كاملة وفى انتظار تحقيق هذه الأمنية يستطيع القارىء أن يقرأ :

Introduction à la sociologie de la famille, Annales Faculté Lettres de Bordeaux P. 257-281, 1888.

الوحدات البيولوجية الذى يقوم على دراستها علم الاجتماع . ويصح أحيانا أن تضم إلى هذه الدراسة ، دراسة طبقات المجتمع وذلك فى الحالات التى يظن أو يعتقد فيها أن هذه الطبقات ناشئة عن أجناس races غريبة عن بعضها البعض كما كان الحال - حسب اعتقاد بعضهم - عند نشأة روما فالطبقة فى هذه الحالة ويطلق عليها إسم castes تعد وحدة طبيعية ولكنها لا تحتفظ بنقائها مدة طويلة إذ لا تلبث أن تتسرب اليها عناصر دخيلة ويصبح التشبث بالأصل نوعاً من الوهم .

٢ — التجمعات الجغرافية

هناك غير التجمعات السالفة الذكر تجمعات من نوع آخر يصح تسميتها بالتجمعات الجغرافية أو التجمعات الإقليمية groupements territoriaux» حسب تسمية دوركيم لها . ولا يشترط فى هذه التجمعات أن تقوم على وحدة العنصر وإنما تقوم على وحدة الإقامة فى مكان واحد . إذ يكفى أن يجتمع عدد من الناس جنبا إلى جنب فى صعيد واحد سواء عن طريق المصادفة أو نتيجة لظروف مرغمة حتى تتكون منهم نواة لنشأة المجتمع . والاستقرار والإقامة فى مكان واحد حتى ولو لم يكن بين الأقارب تنشأ عنه عدد من الصلات والعلاقات المتبادلة فلا تلبث أن تولد مجتمعات جديدة سداها الجوار ولحمتها التقارب . وحقوق الجوار وواجباته قد تقدم أحيانا على حقوق الأقارب وواجباتهم . ويتجلى ذلك بوضوح فى ريف فرنسا الجنوبى حيث ظلت الوحدة الإقليمية ذات طابع متميز . وفى هذه الحالة تحل رابطة الأرض jus soli محل رابطة الدم jus sanguinis . هذه التجمعات الإقليمة كثيرة ومتعددة فمنها القبائل ، والقرى ، والمدن ، والدول.

والقبائل وما يتفرع عنها من تقسيمات مختلفة (١) كانت فى الأصل تجمعات عائلية ولكنها ما لبثت أن أصبحت وحدات تقوم على وحـــدة السكن وهى تتميز بمجموعة مساكنها . ما تملكه من أرض معينة واضحة الحدود .

والقرية هى أبسط هذه المجموعات التى تقوم على وحدة الإقليم . وهناك مظاهر كثيرة للعواطف المشتركة التى تنشأ عن حياة الجوار . فلكل قرية من قبائل البربر المستقرة فى الجزائر عرفها المتداول أو تشريعها المكتوب ولها دستورها وإدارتها بحيث تكون وحدة متكاملة . وحتى فى فرنسا ذاتها كلنا يعرف ما للاصطلاحات المحلية من قوة ونفوذ . وهذه الاصطلاحات تختلف من إقليم إلى آخر وهى بالنسبة للغريب على شىء كثير من الطرافة والجدة (٢) وعلى هذا يجب ألا ينظر إلى الوحدة الريفية أو الإقليم على أنه تقسيم مصطنع . فان هذه التقسيمات تكون وحدات حقيقية لها طابعها الخاص .

والمدن أو البلدان تعد أيضاً تجمعات إقليمية (٣) . فالمدينة بحدودها المعروفة لا تخرج عن كونها مجموعة محلية اتسع نطاقها أو قرية تضاعفت وتضخمت . وهى تمتاز بما لها وعلى الأخص بما كان لها فى الماضى من قوانين

---

(١) Les phratries, les dèmes ou les nomes, les *pagi*, les terroirs, les quartiers.

(٢) للالمام كما يجب بهذه الاصطلاحات المحلية الريفية يستحسن الرجوع إلى أحد المجموعات المسماة : Recueils d'usages locaux وهى مجموعات تنشر ليسترشد بها موظفو الادارة فى الأقاليم .

(٣) لدراسة الأشكال المختلفة لحياة المدن انظر :

R. Maunier, L'origine et la fonction économique des villes, in-8o., 1910.

وأنظر كتاب المؤلف أيضاً :

Essai sur les groupements sociaux, in16o., 1929, chap. V.

وعادات وشعور خاص كما تختلف بما لها من مصالح وحقوق . ولكل مدينة روحها وطابعها الخاص . فهذه لها طابع البلدة الصغيرة وتلك لها طابع البلدة الدينية . وقد كتب لا برويير La Bruyère فصلا ممتعاً يبين هذا الاختلاف فى الطابع كما وصفه من قبله الكاتب الهزلى ل . ب . بيكار Picard فى لوحة نقدية طريفة . وقد اشتهر ما بين المدن من المنافسات والمساجلات لتؤكد كل مدينة خواصها الذاتية . وكانت هذه المساجلات تؤدى غالبا إلى شجار ينشب بين سكان بلدتين متجاورتين ولا زلنا نرى حتى اليوم المعارك التى تنشب بين أفراد حى وحى آخر من بلدة واحدة وما يصحب ذلك من التغنى بمزايا الحى الذى ينتمى اليه كل فريق . وسيظل سكان بلدة سانت مارى دائما هدفا لسخرية سكان آرل les arlésiens كما سيظل سكان مارتيج Martigues هدفا لنقد أهل مرسيليا . ومما لا شك فيه أن المدن تختلف حسب ما تؤديه كل منها من الوظائف داخل نطاق المجتمع العام . فهناك مراكز الدفاع والحماية ضد الغارات التى تأتى من الخارج وهناك مراكز الانتاج وهناك مراكز الاتصال بين أجزاء القطر المختلفة كما أن هناك مراكز العبادة وهذه كلها نماذج مختلفة . كما تختلف المدن أيضا من حيث أحجامها فمنها الصغير ومنها الكبير ومنها ما يتضاءل حجمه حتى يقرب من القرية وما يعظم حجمه حتى ليكاد يبتلع إقليما بأكمله . ومن المدن اليوم ما يربو عدد سكانه على عدد سكان قطر بأكمله فى العصور الخالية . ولكنها ستظل دائما « وحدات مشتركة من السكان communautés d'habitants » على حد التعبير الصحيح المستعمل فى القانون الفرنسى القديم . ولا نغالى إذا قلنا إن لكل مدينة مميزاتها الخلقية وشخصيتها العقلية والمدن الكبيرة على الخصوص لها لونها الخاص فى التفكير وفى طريقة الحياة . وقد لاحظ جرونت Graunt عالم

الإحصاء منذ أكثر من قرنين أن المدن الكبيرة تتميز بقدر من « حب الاستطلاع » « والقلق » لا يوجد فى الأقاليم التى تعيش على البساطة . كما وجد برناردان دى سان بيير Bernardin de Saint-pierre وروسو وغيرهما أن المدن الكبيرة مصدر لفساد الخلق ويرى سيمل Simmel فى عصرنا الحالى أنها تتميز بطابع الابتكار وروح الفردية وعدم المساواة وعدم الاستقرار كذلك.

والدول شأنها فى ذلك شأن المدن إنما هى قبل كل شىء مجتمعات اقليمية. ولقد ظهرت محاولات عديدة قبل رينان Renan وبعده لتعريف « الدولة » وهناك عدد لا يحصى من الصيغ(١) ويؤخذ من مجموعها أن الدولة أو الوطن لا يقوم إلا باتحاد عناصر مختلفة : الاشتراك فى الأصل ، ووحدة اللغة ، ووحدة الآمال والمصالح. ولكن ابتداع هذه الأسس فكرة حديثة. أما الأساس القديم الثابت فهو امتلاك جزء معين « من الأرض » . والمدن والأقطار والممالك والامبراطوريات لا يمكن تصورها أو تخيلها أو الرمز اليها إلا فى حدود المكان . والدولة التى لا أرض لها تعين حدودها كما هو الحال فى البابوية أو عصبة الأمم ليست بدولة حقيقية . وهكذا نرى أن الحدود أو التخوم ذات أهمية عظيمة إذ أنها تحدد معالم الدول . ومنذ عهد المدائن القديمة حيث كانت الحدود مقدسة إلى عهد الدول الكبيرة فى العصر الحاضر

---

(١) أنظر فى هذا الموضوع

Ernest Renan: Qu'est-ce qu'une nation.

Adolf Bastian: Der Volkergedanke im Aufbau einer Wissenschaft vom Menschen, 1881.

D. G. Brinton, The nation as an element in Anthropology (Annual Report Smithsonian Institution) 1882

وللالمام بالنظريات إلمامة عاجلة أنظر

Van Gennep, Traité comparatif des nationalités. 1922

وقد شرحنا الصفات اللازمة للدولة والامبراطورية فى الفصل السادس من كتابنا ,

Essai sur les groupements sociaux.

ينظر إلى الحدود دائماً على أنها الرمز الأول للدولة . وقد عنى راتزل Ratzel وجييوم Guillaume ببيان ما للحدود من أهمية فى كيان الدولة وفى تكييف شخصية الشعوب .(١) فالمكان أو المظهر الإقليمى إذن عنصر عقلى كما أنه فى نفس الوقت عنصر مادى فى كيان الدولة . وهذا المظهر الإقليمى ندركه بالفكر وبالتصور وبالتخيل فهو فكرة ذات قوة ومعنى . والحدود حين تقدس وتحترم فليس ذلك لأنها تحدد بل لأنها تعرف وتميز وتؤكد شخصية كل دولة . وربما كان ذلك أحد الأسباب التى حدت بكثير من الساسة منذ عهد أرسطو للاشادة بالدول الصغيرة وذلك لأن الحدود فيها قريبة المنال تتمثل فى الذهن بدقة ووضوح مما لا يتيسر فى حالة الأمبراطوريات الشاسعة الأطراف . وتعين الحدود فى أيامنا هذه على الخريطة بعلامات وألوان مختلفة ترمز إلى التمييز والفصل بين الشعوب فى الأصقاع المختلفة . ومساحة الدول وعدد سكانها عامل كبير فى قياس قوتها . فامتلاك جزء من الأرض والسيطرة عليه هو أول عامل يخلق الدولة . وقد عبر الفاتحون منذ أقدم العصور عن هذا المعنى بما كانوا يقومون به من شعائر رمزية فقد كانوا عند الانتصار يؤدون أفعالا رمزية يتملكون بها زمام الأراضى والمياه . كانوا يغرسون الصليب فى الأرض أو يشقوا الهواء بالسيف أو يدفعوا بجوادهم نحو اليم . ويقولون فى لغة الحرب « إخضاع الأراضى » أكثر من قولهم « غزو شعب » ولا تزال هذه الفكرة

---

(١) أنظر :

Ratzel, Anthropogeographie, in-8o., 1909.

De Greef, Théorie des frontières et des classes, 2 Vol., 1908.

ولإلقاء نظرة عامة على هذا الموضوع أنظر

P. Camena d'Almeida, la notion des frontières en géographie politique, Bulletin Société de géographie commerciale de Bordeaux, XXV, P. 341-348, 1902.

قائمة حتى يومنا هذا فى التعبير المعروف : « الأراضى الخاضعة للانتداب » .

وأنا لا أنكر أن الفكرة العامة التى تظهر خلال الحكم والأمثال تدل على أن التمييز بين الشعوب يقوم على اساس خلقى فلكل شعب صفاته المميزة ومزاجه الخاص . ولا مانع من أن نقر بوتمى Boutmy على ما ارتآه من إنشاء « علم نفس سياسى » وأن نوافق لازاروس Lazarus وشتينذال Stinthal على فكرة إنشاء « علم نفس للشعوب » . وقد نادى كذلك Savigny وغيره بأنه يجب أن يكون لكل دولة قانون خاص هو صدى لتاريخها وثمرة لعقليتها . كل هذه الآراء صحيحة لا غبار عليها . ولكن كيف كان من الممكن أن تظهر هذه الاتجاهات أو يكتب لها الدوام بدون وجود العامل الأساسى وهو الاتصال والتجاور الذى بدأ من أحقاب سحيقة وترك أثره على مر السنين ؟ إن صلة الإنسان بالأرض ربما ظلت من الوثوق والقوة فى يومنا هذا كما كانت دائماً فى الأزمنة الأولى .

٣ — التجمعات الاجتماعية

نتكلم الآن عن نوع آخر من أشكال التجمع الإنسانى يقوم على أساس آخر . فهناك من أنواع التجمع ما يقوم على الاشتراك فى العمل Communauté d'action أو الوظيفة . فهى تختلف عن الأنواع التى سبق ذكرها والتى كانت تقوم على الاشتراك فى الأصل أو الاشتراك فى مكان الإقامة . هذه التجمعات تتكون من أفراد يلعبون فى الحياة دوراً واحداً أو يسعون وراء غاية واحدة دون أن يكونوا لذلك حتما أقارب أو جيرانا . وتقوم وحدتهم على عامل اجتماعى لا على عامل طبيعى . ولذلك

اخترت أن أسمى هذه التجمعـــات « بالاجتماعية » (١) . وهذه التجمعات أو الوحدات الاجتماعية تتخفف تماماً من حدود المكان مثل ذلك المذهب الدينى أو النقابة المهنية أو الهيئـــة الجامعية . فهذه كلها وحدات اجتماعية لا تنحصر داخل نطاق مكان معين بل قد يكون أفرادها متفرقين فى أنحاء مختلفة من العالم . وتتنوع هذه المجتمعات التى تقوم على الاشتراك فى العمل أو الوظيفة فى أشكال لا حصر لها . وتشهد بذلك المفردات الكثيرة التى تفيض بها اللغـــة فى بيان هذا التنوع ومنها : مجتمع Société - رابطـــة association - اتحاد union - ائتلاف confédération - عصبة ligue تحالف coalition - أصحاب مذهب cabale - مؤامرة cunjuration دائرة cercle - مجمع ماسونى loge - وفد أو هيئة مفوضة délégation الخ . . . وهناك غير ذلك كثير من الكلمات الفنية والكلمات الأجنبية . ومن أمثلة الأولى : corporation نقابة (وقد كان ذلك المعنى سائداً فى العصور الوسطى) - mutualité تعاون - entreprise مشروع - syndicat نقابة (بالمعنى الحديث) . ومن أمثلة الثانية : club نادى ، trust, omnium cartell consortium وكلها تدل على اتحاد الشركات لاستغلال موارد خاصة وتستعمل فى اللغة العربية كما هى . هذه الكثرة من المفردات والمصطلحات التى تدل على الطوائف الوظيفية تحتم علينا أن نقوم بتصنيف لهذه المجموعات العجيبة التى تنشأ من تلقاء ذاتها أو توجـــدها الظروف والتى لا صلة لها بالدم ولا بالأرض . ونحن نستطيع أن ندخل كثيراً من هذه الأشكال بطريقة قد يكون فيها شىء من التعسف فى واحد من قسمين كبيرين : وحدة المركز الاجتماعى ، ووحدة الوظيفة الاجتماعية .

---

(١) وقد سماها المؤلف أيضا بالتجمعـات الوظيفية .

Leçon d'ouverture d'un cours de Sociologie algérienne, dans Hespéris, Archives marocaines (Rabat), P. 93-107, 1922.

أما وحدة المركز الاجتماعى فتظهر فيما يعرف بالطبقات الاجتماعية.

فلا يخلو مجتمع ما مهما كان فى طور البداوة من نوع من التـــدرج بين أفراده hiérarchie . وهناك غير الفروق التى يستدعيها السن والجنس فروق أخرى بين الطوائف ناجمة عن التفرقة فى الحقوق والواجبات ، فى الثروة أو الامتيازات . كل هذه الفروق تحدد لكل شخص حالتـه condition أو مركزه situation . ويتخذ المجتمع فى العادة شكلا هرميا حين توضع طوائفه المختلفة بعضها فوق البعض . ونحن نستطيع أن نتتبع الطريقة التى نشأت بها هذه الفوارق المميزة حتى تأصلت فى النفوس . وهناك فوارق ترجع إلى الرتبة وإلى الوظيفة وإلى ألقاب الشرف وإلى الحسب الخ ... (١) وتتميز الطبقات حسب الواقع وقد يعترف بها القانون : فهنـــاك الأطهار والمنبوذون ، والأحرار والعبيد ، والنبلاء والسوقة ، والمتدينون والعلمانيون ، ورؤساء العمل والمساعدون ، وأصحاب الأعمال والعمال ، والبورجوازيون والمعدمون les prolétaires . هناك من أصحاب الامتيازات كثيرون وكثيرون أيضا ممن لا يتمتعون بشىء . واكتســـاب الحقوق بالوراثة أو احتكارها عن طريق الوظيفة أو ضمانها عن طريق الامتـــلاك كل هذه وسائل مختلفة للحصول على السلطان . ولكل طبقـــة قوانينها وعاداتها واصطلاحاتها ولغتها . كما أنها تقوم بدور تختص به يفرض عليها أو على الأقل يخصص لها ويحرم عليها القيام بدور آخر : ففى عهد الملكية الفرنسية كان النبلاء إذا اشتغلوا بالتجارة يفقدون صفة النبل فى نظر الناس وقد استدعى الأمر كثيراً من المساجلات السياسية حتى انصرفت أذهان الناس عن هذه

---

(١) لدراسة أصل الطبقات أنظر كتاب .

Millar, Observation sur la distinction des rangs dans la société, in-16o., traduit de l'anglais, 1778.

الفكرة السخيفة . وقد اشتد الاستمساك بهذه القيود حين تطورت الفوارق فى المجتمعات إلى نظام الطبقات المتزمتة أو الطوائف les castes (١) فامتد التحريم والفصل بين الطبقات المختلفة إلى الطعام والملامسة ومنع الزواج بين طبقتين مختلفتين . فأصبحت القاعدة فى الزواج هى الزواج الداخلى endogamie بحيث يحرم الزواج على الفرد من خارج الطبقة التى ينتمى إليها .

وقد يحدث حين يتوارث المجد والنفوذ فى طبقة معينة أن يصور خيال الشعب هذه الصفات فى صورة مجسمة . فقد روى لنا رينان فى « ذكريات الطفولة Souvenirs d'enfance » أن الرأى العام فى مقاطعة بريتانيا بغرب فرنسا كان يعتقد أن الطبقة النبيلة تتمتع بقوى خفية ومقدرة سحرية وأنها كانت على الخصوص تستطيع أن تجلب الشفاء . وقد كان هذا الاعتقاد فى المقدرة على شفاء المرضى سائداً بالنسبة لملوك فرنسا الأقدمين . وفى الشرق يحاط النبلاء بهالة من القداسة (٢) ويلاحظ التدرج فى المراتب بدقة وعناية يظهران حتى فى التحية . ومن المعروف أن الفوارق « والمسافات » التى تفصل بين الطبقات أكثر ظهوراً ووضوحاً من الفوارق بين الشعوب نفسها . وقد عنى كثير من الكتاب بدراسة « العقلية الطبقية L'esprit de

---

(١) أنظر كتاب بوجليه :

C. Bouglé, Essais sur le régime des castes, in-8o., 1908.

والكتاب المذكور يتناول نظام الطوائف فى الهند والمحرمات الخاصة بالمنبوذين الخ.

(٢) أنظر كتاب دوتيه :

Edmond Doutté, Merrâkech, in-8o., 1905, P. 54-56.

ننصح طالب علم الاجتماع على الخصوص بقراءة هذا الكتاب القيم الذى كتبه أحد الباحثة المدققين . و نظر أيضا ما كتبه دافريل فى مجلة الشرق المسيحى :

A. d'Avril, Les hiérarchies en Orient, Revue de l'Orient chrétien IV, P. 145-149, 1898.

classe (١) . فلكل طبقة آراؤها وطريقة تفكيرها التى تميزها وتدل عليها .

ولا يقتصر الأمر كما قلنا على التفرقة من حيث المركز فى مجتمعاتنا الحالية على وجه الخصوص تتميز الطوائف بوحدة العمل أو الوظيفة ومن الطبيعى أن تكون لكل طبقة وظائفها . والوظيفة ذاتها من أنشط العوامل فى تعدد الطوائف وأشكال التجمع . وكلما زادت الأعمال والغايات والمصالح كلما تعددت الطوائف الخاصة التى يتميز بعضها عن البعض أو يتعارض بعضها مع البعض .

فمن هذه الطوائف ما يخدم الدين ـ أو السحر ـ : جمعيات إخوان ، وجمعيات سرية ، وكنائس ، ومذاهب ، وفرق رهبنة . وهذه تكون فى الغالب طوائف عالية تنقسم إلى شعب محلية ثم تنقسم هذه بدورها إلى شعب إقليمية وقروية . وبنفس الطريقة كانت الجامعات الكبرى ولاتزال ، فى الشرق والغرب على السواء ، مجموعات من العناصر الدولية .

ومن الطوائف ما يرجع إلى نوع العمل occupation : وتنطبق هذه الكلمة على الحرفة الثابتة profession التى يمارسها المرء على الدوام كما تنطبق أيضاً على كل عمل يخدم مصلحة أو حاجة . أى أنها تعنى العمل الثابت المنتظم والعمل المؤقت غير المنتظم . ومن أمثلة هذه الطوائف طوائف أصحاب الحرف المختلفة corps de métiers ، وطوائف مساعدى العمل

---

(١) أنظر مقال فورنيير فى المجلة الاستراكية :

E. Fournière, Conformisme de classe et de cotégorie, Revue Socialiste, Nov. 1912.

وأنظر أيضا كتاب سيمل .

Simmel, Soziologie, in-8o., 1908.

ونقابات أصحاب الأعمال والعمال وهى ترجع فى قدمها إلى أبعد مما نتصور فقد كان الكثير منها قائما فى العصور الوسطى وكان مصدر قلق فى بعض الأحيان . ويمكن أن ندخل فى عداد هذه الطوائف منظمات الطلبة فى البلاد الجرمانية وهى منظمات لها شعائرها الخاصة ، ورموزها الخاصة ، وأسرارها الخاصة . كما أن لها تقاليد خاصة فى طعامها ولهوها وفى حياتها العامة . ونستطيع أن نضع فى عداد هذا النوع من الطوائف الجماعات التى تتكون لأى غرض يقصد من ورائه النفع : كاتحاد الأشراف pariage أو التعاقد على استغلال الأرض métayage أو الجماعات التعاونية مهما اختلف إسمها أو نوعها وأخيراً جميع الجمعيات التى تكون لأى غرض تجارى بأى شكل من الأشكال أو حجم من الأحجام . ولا يقتصر الأمر على العمل النافع فللأشرار عصاباتهم maffia, camorra وهى تخضع لاصطلاحات وقوانين خاصة . . . ولا ننسى أخيراً الأحزاب السياسية ولجان العمل وروابط الإصلاح . . . أو الثورة . كل هذه الطوائف والجماعات تدخل تحت نوع واحد ولا تختلف إلا من حيث أغراضها . (١)

وهناك من الطوائف أو الجماعات أخيرا ماتتكون لغرض اللهو أو الاستجمام وهى وأن كانت تنصرف إلى نوع من العمل لايرجى منه منفعة مادية : ومن هذه الجماعات جماعات الرقص أو لعب الورق أو جماعات قارضى الشعر او الموسيقيين أو محبى الرماية بالقوس وجمعيات رواد الحانات وهواة الصيد . وتجتمع أمثال هذه الجمعيات فى « حلقات » cercles أو نوادى

---

(١) للالمام بهذا التنوع بالنسبة للطوائف التى تقوم على الاشتراك فى الغرض أنظر
A. De Laborde, De l'Esprit d'association dans tous les intérêts de la communauté, 2 Vol., in-8o., 1821.

وقد وضع المؤلف لهذه الطوائف تصنيفا أكمل فى كتابه
Essais sur les groupements sociaux, chap. II, in-16o., 1929.

clubs تطلق عليها أسماء مختلفة . ويدخل فى عدادها بالجملة كل جمعيات الرياضة أو اللهو أو الرحلات . وكلما تطور المجتمع من الشكل البسيط إلى الشكل المركب كلما زادت أمثال هذه الجمعيات وتشابكت . فالفرد فى مجتمعاتنا الحديثة لا ينتمى إلى أسرته أو بلدته أو إقليمه فحسب بل إنه يرتبط أيضا بمجتمعات أخرى كثيرة من شاكلة هذه المجتمعات يختارها برغبته المحضة . فهو إلى جانب الجماعة التى يربطه بها مولده أو محل إقامته يرتبط بجماعات أخرى حسب عقائده أو نوع عمله أو هوايته . وهكذا تصبح الإرادة الحرة عاملا من عوامل التجمع . وإذا كان الناس يرتبطون استجابة للضرورة الملحة فانهم يرتبطون أيضا برغبتهم المحضة .

الفصل الرابع

تقسيم الظواهر الاجتماعية (نهاية)

ثانيا : — التصرفات الانسانية

كما أن الجسم الحى يتكون من أعضاء مختلفة فكذلك يمكن القول بأن الجماعات الانسانية التى تكلمنا عنها فى الفصل السابق هى « الاعضاء » التى يتكون منها المجتمع . ويمكن تشبيه هذه الجماعات بالأوعية المغلقة التى تنبثق منها آراء الناس وحركاتهم أو بأنها لوحات « سينمائية » تعرض عليها حركة لا تنتهى من الآراء والأفعال التى لاحصر لها . إذ يميل الناس الذين تجمعهم طائفة واحدة إلى التصرف بطريقة متشابهة . فطرق شعورهم وتفكيرهم وأفعالهم إنما هى اصطلاحات مشتركة تطبق عليها أنواع من الجزاءات . ويمكن إجمال كل ذلك فى كلمة « التصرف comportement » أو « السلوك conduite » . ويعبر الأمريكيون عن نفس المعنى بكلمة Behaviour . ويتعين علينا الآن أن نحدد صفات التصرفات الجمعية ونوضح مظاهرها المختلفة .

لاشك أننا نعرف أن تصرفات أى كائن حى تنحصر دائما فى نوعين : أفكار des notions وأفعال des actions . وهذه الاخيرة هى التى تترجم عن الاولى وتخرجها إلى حيز الوجود : فهناك من ناحية العواطف والافكار ومن ناحية أخرى الافعال والحركات ، هناك الاحكام وهناك الحركات . هناك مايعتقده وما يشعر به الناس حين يعيشون فى جماعة ، وهناك مايفعله وما يحاوله هؤلاء الناس أنفسهم وهو يعبر دون شك عما يجول

بخاطرهم وعما يرغبونه ويطمحون إليه كما يعبر أيضاً عما يتصورون أنهم قادرون على القيام به . وغالباً ما تكشف لنا الأفعال عما تضمر السرائر .

فاذا كنا نريد أن نضع تصنيفاً واضحاً لهذه الأفكار والأفعال أفلا يحسن بنا أن نرتبها بحسب الغايات التى يظن أنها تهدف إليها ؟ ويكفينا فى ذلك أن نحدد الغايات الظاهرة دون حاجة إلى تعقب الغايات الحقيقية الباطنة . ومن المسلم به أن الناس إنما يتصرفون بغية الوصول إلى بعض الغايات وأن لهم حاجات يستعينون بالفكر وبالعمل على إرضائها وإشباعها . وليسمح لى علماء الاقتصاد الكلاسيكيون بأن أستعير لغتهم فأقول إن الأفكار والأفعال التى تظهر بين الناس مجتمعين تتصل بحاجات وتهدف فى النهاية إلى قضائها . وعلى ذلك نستطيع أن نصف هذه الأفكار والأفعال تبعاً لنوع الحاجات التى تعمل على إشباعها .

وهذه الحاجات تنقسم إلى ثلاثة أنواع : اقتصادية وسياسية وروحية . أما الحاجات الاقتصادية فانها تتصل بالماديات وتعبر عن رغبات الناس نحو الأشياء . وكل ما نعمله لقضاء هذه الحاجات يسمى الصناعة والفن ونستطيع أن نطلق على هذا النشاط إسماً شاملا فنسميه حياة الانتاج vie de production . وأما الحاجات السياسية فانها تتصل بالحياة الجمعية وتعبر عن رغبات الناس نحو الناس . واللغة والقوانين هى وسائل إرضاء هذه الحاجات . ونستطيع أن نطلق على هذا النشاط إسم حياة الاتصال vie de relation - وأخيراً الحاجات الروحية وهى تتصل بالعاطفة الدينية وتعبر عن رغبات الناس نحو الآلهة . فالدين والسحر هما الوسيلتان اللتان يحاول بهما الكائن الإنسانى أن يشبع تلك الرغبة الملحة فى كشف المجهول . ففى كل مجتمع نستطيع أن نجد آراء وأفعالا تتصل حقيقة بما « وراء الطبيعة » أى أنها

تتعلق بكائنات غير منظورة : كائنات فى عالم آخر يتوسل إليها الناس بالتعبد. هذا النشاط الأخير إذن هو حياة العبادة vie d'adoration .

نستطيع إذن بكل سهولة ووضوح أن نرتب كل ما يعتقده الناس وما يفعلونه فى المجتمع تحت هذه المعانى الثلاثة : الإنتاج ـ الاتصال ـ العبادة . وليس هذا الترتيب مصطنعاً أو تعسفياً كما قد يتصور بعض الناس . فأنا حين أرجع تصرفات الناس إلى بعض « الحاجات » والغـــايات لا أدعى لنفسى الحكم على البواعث الدفينة التى تحركهم إلى العمل . ولا أريد أن أخاطر بنفسى فى مجاهل اللاشعور الزلقـــة التى يعتقد فرويد أنه قد توصل إلى كشفها . كلا لا أريد أن أتوغـــل فى هذه « الأراضى المجهولة terrae incognitæ » ويكفينى أن أقرر أن حركات الناس وآراءهم يمكن ملاحظتها من الخارج ما دمنا نستطيع أن نشاهد ونلمس الأشياء التى تنصب عليها هذه الحركات والآراء . وإذا تكلمنا بلغة القانون فاننا نقول إن هذه الأشياء تقع تحت الحس وأنها ليست غايات خفية .

تتصل إحساسات الناس وانفعالاتهم وآراؤهم وأفعالهم بأغراض ثلاثة : فهى إما أن تتعلق بأشياء أو بأناس أو بآلهة . هذه هى الأغراض التى تثير اهتمام الكائنات الإنسانية . والنشاط الاقتصادى أو الثروة يتصل بالأشياء . وكل الآراء والحركات التى تنبعث عن هذا النشاط تمس العالم المـــادى : فغرضها دائما يتصل بعالم الطبيعـــة . فانتاج الأشياء وصنعها يحتاج إلى أخذ المواد الأولية من الطبيعة وتحويلها ومعنى ذلك أن نتصرف فى الأشياء ونؤثر عليها . أما النشاط اللغوى والتشريعى فانه يتصل بالناس . والآراء والحركات التى تنبعث عن هذا النشاط تمس العالم الإنسانى ، فغرضها دائما

سياسى . فالمحادثة أو التعاقد عمليتان تعنيان أننا نتصرف مع الناس ونؤثر فيهم . أما النشاط الدينى أو السحرى فانه يتصل بالآلهة . والآراء والحركات التى تنبعث عن هذا النشاط تمس العالم الروحى فغرضهـا دائما روحانى . وليست الآلهة والأرواح والقوى السحرية حقائق مادية كالكائنات الحية والأشياء ولكنها حقائق روحيـة تنبعث عنها الأساطير والشعائر . فتقديم القرابين وأداء الصلوات معناه أننا نتصل بالآلهة .

الأشياء ، الناس ، الآلهة : هذه هى العناصر التى تملأ عالم الإنسان الذى يعيش فى المجتمع . وحياة الإنتاج تتصل بالأشياء . وحياة الاتصال مقصدها الناس وحيـاة العبادة هدفها الآلهة . وما « التصرفات » إلا الوسائل الفكرية أو العملية التى يتخذها الناس للاتصال بهذه العناصر إما لتأملها وإما للتأثير عليها .

١ - حياة الانتـاج

تخضع الأشياء التى يتكون منها العالم الخارجى لعمليات ثلاث : التغير أو التحول ، والانتقال والفناء . ولنلاحظ أن هذه العملية تصطحب دائما بعمليات عقلية أو آراء فكرية أو بما نسميه عادة بالتصورات . فاذا أخذ المثال ـ كما ترويه الخرافة ـ قطعة من الرخام ثم سأل نفسه هل يشكلها إلها أو مائدة أو وعاء فانه يثير مشكلة الإنتـاج أو تكييف الأشياء حسب الحاجات .

ونحن نعتقد أننا عن طريق عملية تغيير أو تحويل الأشياء نستطيع أن نجعلها « نافعة » . وهذه العملية معناها أننا نأخذ المادة الخام ونغير حالتها

أو شكلها أو مكانها . فاذا صنعنا وعاء من الطين أو قربة من الجلد أو قمنا بصيد السمك فان هذه العمليات كلها تسمى إنتاجاً . فالإنتاج يستلزم إذن مادة و قوة تؤثر على تلك المادة . ويطلق إسم الصناعة أو الفن الصناعى la technologie على مجموعة الوسائل التى تؤثر بها على المادة . أو بمعنى آخر مجموعة الاختراعات والتطبيقات التى تستخدم فى الإنتاج (١) .

وقد نكتفى فى بعض الأحيان ، بلا شك ، باستخدام الأشياء كما هى : كأن تستخدم الحجارة لبناء الموقد ، أو الحصى لتهذيب الأوانى الفخارية أو كاستخدام العصى والغاب أو استخدام غلاف بعض الثمار كآنية أو جلد الحيوان أو المثانة لحفظ الماء الخ . . . هذه الأشياء تستخدم بحالتها تقريبا دون أن نجرى عليها كثيراً من التغيير .

ولكننا غالبا ما نحتاج إلى تغيير حالة الأشياء كأن نحاول عن طريق الصناعة تقليد الأشياء الطبيعية أو عمل نماذج مماثلة لها reproduction . وقد يكون التغيير أحيانا بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة فنشرع فى تكييف أو تشكيل المادة الخام بحيث نعطيها شكلا وقيمة . مثال ذلك أن نصنع « قفطاً » من الخيزران أو عيدان الغاب المضفرة .

وتستمد القوة اللازمة لهذه العمليات أو لهذه الصناعات من مصادر

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع بصفة عامة :

J. R. Jackson, Des arts et inventions de la vie sauvage, Mémoires de la Société ethnologique, I, 1ère partie, P. 285 et seq., 1841.

وأيضاً :

Otis T. Mason, Origins of inventions..., in-8o., 1895.

مختلفة (١) . وقد ظلت هذه القوة حينا من الزمن قاصرة على يد الإنسان ، كما استخدمت الأرجل أو الأسنان أحيانا . ثم استعانت اليد ببعض الأدوات التى تطورت من حالة البساطة إلى الأدوات الدقيقة التى نراها اليوم . واستخدمت كذلك قوة الحيوان وأخيراً قوة الآلات . والفرق بين الأدوات outils والآلات machines أن الأولى تحركها يدالإنسان أما الثانية فتحركها طاقة من القوى الطبيعية : كالهواء أو الماء أو الحرارة أو ضغط البخار أو انتشار الموجات (٢). ومن علماء الاجتماع من كانوا على حق فى إفساح مكان فى مذاهبهم « لعصر الآلات » ومن هؤلاء Le Play العالم الفرنسى . والحق أن اختراع الآلات قد أحدث تأثيرات عميقة فى اتجاه الأفكار وفى محيط النشاط الإنسانى .

هذه الظواهر المتعلقة بالنشاط الاقتصادى ظواهر اجتماعية قبل أن تكون نتيجة للتفكير المنطقى وإعمال الفكر (٣) فتردد الصناعة والفن أحيانا بين اتجاه وآخر إنما يرجع فى معظم الحالات إلى التقاليد وإلى الأفكار السائدة فى المجتمع . والسير فى اتجاه بالذات قد لا يكون مرجعه دائما إلى حكم العقل . وكثيراً ما يتعلق الناس بطريقة ما وهم يعلمون أنهم يخضعون لتأثير « الخرافة Superstition » . وقد لوحظ أن كل جماعة من الجماعات

---

(١) أنظر فيما يتعلق بما يلى من الكلام فى هذا الموضوع
A. Espinas: Les origines de la technologie, in-8o., 1897.
وكذلك A. Rey: L'invention, dans le Traité de psychologie de G. Dumas, Tome II, in-8o., 1924.

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع :
Reuleaux: Coup d'oeil sur l'histoire du développement des machines, dans sa «Cinématique», 1877.

(٣) يستطيع القارىء أن يعثر على ملاحظات طريفة عند الظروف الاجتماعية والنتائج التى ترتبت على صناعة الفخار فى المرجع الآتى :
L'article «Pot» du Dictionnaire du mobilier français, par Viollet-le-Duc.
وانظر أيضا بصفة عامة L'année Sociologique, VI, P. 568-572.

الإنسانية تتمسك بما وصلت اليه من أدوات صناعية حتى أن البعض استطاع أن يرسم معالم جغرافيا اجتماعية قائمـــة على اختلاف أدوات الصناعة وكثيراً ما تعرف الحضارات المختلفة عن طريق الصناعات السائدة فيها. ومن علماء الاجتماع من يذهب إلى الاعتقاد بأن أدوات الصناعة تؤثر على العقلية. فقال نواريه Noiré (١) بأن اللغة ثم العقـل إن هما إلا ثمرتان للعمل الجمعي. وقال آخرون (٢) بأن المبادىء العقلية les concepts كانت تعكس دائما فى تطورها تطور العمـــل الصناعي. ثم جاء مذهب «المادية التاريخية» فردد هذه الآراء الاستقرائية إلى حد الإفراط والمبالغة.

وانتقال الأشياء أو دورتها وسيلة أخرى لدى الإنسان للانتفاع بها فالشيء حين يوجد ويصنع ويتملد سرعان ما ينتقل إلى آخرين غير مخترعه. وهؤلاء قد يدفعون فيه ثمنا أغلى. وهذه الفكرة شجعت الإنسان على أن يشتغل من أجل غيره كما يشـــتغل من أجل نفسه. ونشأت بين الأفراد والجماعات حركة تبادل الأشياء «والسلع». واتخذ انتقال الأشياء فى بعض الأحيان شكلا عنيفاً وفى بعض الأحيان شكلا هادئا فكان السلب prédation وكان العطاء أو المنح donation. وكان تبادل الهدايا المظهر الأول للنشاط الاقتصادى الذى تحول فيما بعد إلى التجـــارة بمعناها الصحيح فأصبحت الأشياء والقيم تنتقل وتدور فى دوائر لا حصر لها.

---

(١) أنظر : Noiré, Das Werkzeug, in-8o., 1880.

وانظر أيضا التلخيص الذى كتبه لاشابيه في المجلة الفلسفية :

H. Lachelier De l'outil et de son importance dans l'humanité, Revue Philosophique XIII, P. 539-544, 1882.

(٢) إقرأ المقال الفياض الذى كتبه كوشينج :

F. H. Cushing, Manuel Concepts, A study of the influence of hand-usage on culture growth, dans American Anthropologist, V, P., 289-318, 1892.

وانظر أيضا ماكدوجال :

American Journal of Psychology XVI, P. 232-242.

وانتقال الأشياء هذا يتضمن مبادىء عقلية وخطوات عملية ، أى أفكاراً وأفعالا : أفكار تتعلق بالقيمة والمصلحة والربح والخسارة والمخاطرة . وأفعال تتصل بالبيع والإيجار والعطاء والسلفة والاغتصاب أحيانا . وجميع هذه العمليات سواء أكانت فكرية أو عمليـــة تخضع لقواعد واصطلاحات محدودة يظهر فيها أثر المبادىء التى تقوم على القـــانون والعرف العام . وهكذا نرى أن التصرفات الإنسانية يتصل بعضها بالبعض اتصالا وثيقاً وإن اصطلح العلم على الفصل بينها لتسهيل دراستها .

أما فنـــاء الأشياء أو استهلاكها فهو المرحلة التى تنتهى بها دورة حياة الإنتاج فالناس يستهلكون الأشياء إن طوعا أو كرها ، بالمصادفة أو عمداً . وقد يجدون فى ذلك خسارة أو كسباً ، أو يفرحون له أو يأسفون ، وفناء الأشياء يكون بطريقتين : الفناء المادى أو الحقيقى ، وهو الفناء الذى يسببه استخدام السلع والانتفاع بها مما يؤدى إلى استهلاكها تواً منذ أول استعمال لها ، أو إلى استهلاكها استهلاكا بطيئاً . وقد يكون الفناء بالمعنى المجازى حيث تترك الأشياء وتهمل فى زوايا النسيان دون أن تفنى حقيقـــة : من قبيل ذلك دفن المتـــاع والحلى مع الموتى حيث تبقى سليمة وتكتشف على حالها بعد آلاف السنين ، وكذلك القاء جزء من الثروة فى البحر للاحتفاظ بقيمة الباقى . وفى غالب الأحيان نستغنى عن استعمال الملابس أو الأمتعة لأنها لم تعد تلائم الابتكار الحديث (الموضة) . وهناك من الأشياء ما قد يدوم ويظل صالحا للاستعمال عدة أجيال لو أن تيارات (الموضة) المتغيرة لم تقض عليه بالزوال حتى امتـــلأت المتاحف بأنواع كثيرة من الأثاث القديم والملابس التى بطل استعمالها .

هذه التيارات الفكرية والعملية التى يخضع لها النشاط الاقتصادى تظهر لنا بوضوح قد لا يتيسر فى مجال آخر كيف تدوم الاصطلاحات وكيف

تتحول . ونستطيع بذلك أن ندرك جيداً أن التوافق conformité وهو العنصر الضرورى لكل حياة اجتماعية لا ينفى التنوع diversité وأنه يسمح بالتغير . فالابتكار يغالب العادة المتوارثة وقد يغلبها أحياناً كثيرة .

٢ – حياة الاتصال

تتم الصلات بين الناس بوسيلة هى اللغة وتتبع قاعدة يحددها العرف الأخلاقى والقانون . وتشمل حياة الاتصال التأثيرات والعواطف والأفكار والأفعال التى تهم المجتمع كوحدة . ومن شأن هذه الأفكار والأفعال أن تحدد بصفة خاصة الوسائل التى يتم بها الاتصال بين الناس والقواعد التى تنظم هذا الاتصال . فاللغة والقانون والعرف الخلقى هى إذن أهم مظاهر تأثير الإنسان على الإنسان .

واللغة كما قلنا هى وسيلة الاتصال (١) . وطرق التفاهم ليست فى الحقيقة إلا اصطلاحات نظمت ووضعت قواعدها . ولا بد من تبادل الإشارات والأصوات بين الناس حتى يستطيعوا أن يكونوا مجتمعاً فيما بينهم . ولكل طائفة اجتماعية لغتها الخاصة ومن اللهجات ما هو محلى أو أقليمى أو وطنى أو مهنى فهى تتحدد إذن بالوسط الاجتماعى . ولكل مهنة أو

---

(١) أنظر :

J. W. Powell, *On the evolution of language, Annual Report Bureau of American Ethnology*, I, 1879-80.

مجتمع خاص لهجته الخاصة وأساليبه فى التعبير ومصطلحاته الدارجة (١) ويمكن القول إن لكل أسرة وكل جنس كلماته الخاصة به . وقد أظهرت دراسات ميبه Meillet القيمة هذا الطابع الجمعى للغات (٢) . وما أصدق ملاحظة الرئيس دى بروس De Brosses فى مؤلفه عن « التكوين الآلى للغات Traité de la formation méchanique des langues » حين قال إن الناس قد حاكوا حول أصل مشترك من المبادىء المنطقية عدداً لا نهاية له تقريباً من اللهجات واللغات . وسيأتى حتما ذلك اليوم الذى يتعين علينا فيه أن نقارن بينها جميعاً . وقد عبر آدم سميث عن نفس الفكرة حين كتب « محاولة فى دراسة تكوين اللغات Essai sur la formation du langage » : وقد ذهب إلى أن اللغة ليست إلا مظهرا ووسيلة لتبادل العلاقات بين الناس فى المجتمع . فهى ضرورة من ضرورات الحياة الجمعية .

ويظهر تأثير الإنسان على الإنسان بحالة أشد وضوحاً فى العرف الخلقى والقانون . فعيشة الإنسان فى المجتمع تستلزم التغير المستمر المتواصل فى علاقاته مع الآخرين : فهو اليوم يتزوج وغدا يتعاقد وبعد غد يرث ، وهو يعطى ويقرض ويستخدم غيره فى أعماله . وهذه كلها علاقات قانونية . والقانون والعرف الخلقى يضمان القواعد التى تنظم هذه العلاقات وهما لا يختلفان إلا فى درجة الجزاء الذى يترتب على مخالفة كل منهما . فجزاءات

---

(١) A. Van Gennep, *Essai d'une théorie des langues spéciales*, *Revue des Etudes ethnographiques et sociologiques*, I, Juin-Juillet 1908.

(٢) أنظر على الخصوص من مؤلفاته :

La méthode comparative en linguistique historique, in-8o., 1925.

القانون تحددها الأحكام القانونية المختلفة أما العرف الخلقى فجزاؤه يحدده الرأى العام . ويختلف الجزاء التشريعى اختلافا تاما عن الجزاء الخلقى أو التهكمى * . على أن هذه الجزاءات على اختلافها تثبت دائما أن الظواهر الاجتماعية إنما هى مجموعة من الالتزامات والتحـــريمات ، من الأوامر والنواهى أو على الأقل من الأفعال التى يستطيع المرء إتيانها ومن الأفعال التى يصد عنها . فالقانون إما أن يأمر أو ينهى ، إما أن ينصح أو يحذر ، وكذلك العرف الخلقى . وكما أن لكل جماعة فنها ولغتها فكذلك لها قانونها وعرفها الخلقى وعلى ذلك يمكن القول إن هناك قانونا وعرفا خلقيا عائليا ، ووطنيا ، ومهنيا . ولكل طبقـــة اجتماعية وكل فئة خاصة قواعدها التى تتصل بتنظيم علاقاتها بالآخرين . فتختلف الأوضاع الخلقية ودرجة الإرهاف الخلقى فى المدينة بين الغوغاء عنها فى القصر بين رجال البلاط . وقد كان ولا يزال للقراصنة والمتشردين وقطـــاع الطرق قواعدهم وأسرارهم التى يحترمها ويخضع لها جميع رجال الطائفة . والحقوق والواجبات تتصف بمظهر نسبى وما ذلك إلا لأنها تتطبع بالطابع الجمعى .

ولكننا عند ما نتكلم عن القـــانون يجب أن نلاحظ أن الأفعـال الإنسانية تتحدد وتنظم بطريقتين . ويدفعنا ذلك إلى الكلام عن التفرقة الهامة التى ميز بها السير هنرى مين Henry Maine بين القانون أو النظام le statut والعقد le contrat (١) . فمن قواعد القانون ما يفرض

---

* أنظر جزاءات الظواهر الاجتماعية فى الفصل الثانى فقرة (٣) . (المترجم)

(١) أنظر :

Sumner Maine, *L'ancien droit, trad. française* in-8o., 1874, chap. IX, *Histoire primitive du contrat.*

على الأفراد دون أن يستطيعوا له تبديلا . ولذلك يقال « قانون الأحوال العينية statut réel» أو «قانون الأحوال الشخصية statut personnel». ومعنى ذلك أننا أمام « قوانين » بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة وأنه يتعين على الأفراد أن يسيروا وفق هذه القوانين دون أن يستطيعوا أو يكون لهم الحق فى خرقها . فالزواج والميراث يحددان بالقانون . وشروطهما والنتائج التى تترتب عليهما لا يمكن أن تسير حسب هوى الأفراد . ومعظم الخطوات اللازمة لإتمامهما تفرض فرضا . وما القانون العام والقانون الجنائى إلا أقسام من ذلك القانون الملزم .

أما العقد أو ما يدخل فى حكمه فيشتمل على نصوص تلعب فيها الإرادة والحرية دورا كبيرا . فللطرفان المتعاقدان أن يحددا بشىء كبير من الحرية المواد والشروط التى يتعاقدان عليها . وتحديد سعر القرض أو ثمن البيع أو نسبة الأرباح كل ذلك يدع مجالا كبيرا للاختيار والحرية الشخصية ولا يقيد العقد إلا الملتزمين بابرامه وهو ، على حد قول بعضهم ، « قانون بالنسبة للطرفين المتعاقدين » . وحتى الفعل نفسه أى التعاقد حر فى ذاته إذ أن لنا الحق فى أن نتعاقد أو لا نتعاقد . ونستطيع أن نبيع أو نرفض البيع ، أن نعطى أو نمنع العطاء . وواضح أن ذلك يختلف عما هو معمول به فى بعض المجتمعات من فرض الزواج على الفرد متى بلغ سنا معينا .

على أن العقد نفسه محاط بقيود من القوانين المشرعة وينظم القانون والعرف الخلقى أسسه ومبادئه . فمن شروط التعاقد ما لا يباح وذلك لتنافيه مع الأخلاق أو لإضراره بالغير ولذلك يمنع التعاقد عليها . ومع ذلك يمكن القول إن الإرادة تلعب فى حالة العقد دوراً أكبر مما تلعبه فى حالة القانون الحقيقى . وشروط الأحكام التشريعية ونتائجها تحدد فى حالة العقد بشكل يدع مجالا للحرية أكثر مما فى حالة القانون . وقد أدى ذلك بالكثيرين

إلى الاعتقاد بأن العقد يعطى فكرة أصدق مما يعطيها القانون عن اتجاهات الرأى العام وذلك لما ينطبع به من طابع الحرية . ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذه الفكرة وهى إن صحت فمعناها أن الاتفاق فى الظاهرة الاجتماعية يجب أن يتنحى عن الطريق أمام الاختلاف أو تعدد الأشكال multiformité . وفى رأينا أن التوافق يجب أن يسود وأن يكون الطابع المميز للظاهرة الاجتماعية . والأفعال الإنسانية يجب أن تنطبع بطابع واحد وتسير وفق مثال واحد هو المثال الذى يرسمه لها ذلك «الكائن الصلب الرأى العنيد» ألا وهو المجتمع . على أن هذا المثال يجب هو أيضاً أن يتطور من حين إلى آخر . وهكذا نتبين فى تصرفات الإنسان من الناحية القانونية كما تبينا فى تصرفاته من الناحية الصناعية المظهرين الأساسيين لكل حياة اجتماعية : الاستمرار والتغير .

٣ ـ حياة العبادة

لم أجد خيراً من هذا التعبير فى الدلالة على الأفكار والعواطف والأفعال التى لا تتعلق بالأشياء المادية ولا ببنى الإنسان بل بالآلهة والأرواح . وربما استطعنا أن نقول أيضاً حياة التصوف أو حياة التبتل حيث أن هذه الحياة تنتهى إلى نوع من العبادة culte تظهر على شكل أفعال وحركات وشعائر . فما يشتمل عليه الدين وكذلك مانسميه بالسحر هو مجموعة العقائد والأفعال التى تتصل بالكائنات المقدسة les divinités (١) . وفى هذا

(١) فيما يختص بتعريف وتصنيف الظواهر الدينية والظواهر السحرية راجع :
H. Hubert et M. Mauss, *Mélanges d'histoire des religions*, in-8o., 1909.

ولإلقاء نظرة تاريخية على الموضوع إقرأ :
R. Dussaud, *Introduction à l'histoire des religions*, in-8o., 1914.

المجال تقسم الظواهر بطبيعتها إلى مبادىء عقلية تتصل بأفكار وإلى حركات وأفعال : فهناك من ناحية المعتقـــدات والعواطف أو « التجارب » حسب اصطلاح الصوفية وهذه كلها تظهر فى الأساطير الدينية mythes . وهناك من ناحية أخرى الحركات والوسائل العملية وهذه تظهر فى الشعائر rites فالأسطورة والشعيرة أو العقيدة والعبادة هما المظهران الأساسيان لكل ظاهرة دينية وكل ظاهرة سحرية . وهذه الظواهر أو تلك إنما هى تصرفات جمعية . فلكل جماعة عقيدتها وعبادتها الخاصة بها . وليس هناك بالرغم مما قد يقال ظاهرة تظهر فيها روح الجمـــاعة أكثر من ظاهرة الدين . فالتوافق هنا على أكمله ويتحكم فى الجميع بكل قوة . وهناك الجزاء الدينى سيفاً مصلتاً على الرقاب كفيلا بأن يضمن لأحكام الدين النفاذ . والخوف من اقتراف الإثم يجبر الجميع على الخضوع للآلهة .

يمكن القول إذن إن العقيـــدة تتخذ أشكال متعددة حسب الأحوال المختلفة للمجتمعات . فتتمثل هذه العقيدة أحيانا فى بعض « القوى » المجردة غير المنظورة . أو قد يرمز لها برمز هو الطوطم حيث يعتقد الإنسان أن حياته مرتبطة به . ويطلق إسم « النظام الطوطمى » على النظم الدينية البدائية حيث يسود الاعتقاد بالقوة الخارقة التى تكمن فى بعض أنواع الحيوان أو النبات فيتخذها أفراد القبيـــلة طوطما لهم . وقد تتمثل العقيدة فى بعض الأرواح المجسمة التى تتخذ صفات وأسماء وتكون موضع التقديس والعبادة (كما هو الحال فى ديانات الإغريق والرومان) . وعند بعض الشعوب الوثنية كانت هناك آلهة صغرى للجماعات والقبائل المحليـــة وآلهة كبرى للمجتمع بأكمله . أما الديانات السماوية كالمسيحية والإسلام فان فكرة الإله فيها فكرة مطلقة لا يحدها زمان ولا مكان . وقد فرق كورنو Cournot على هذا النحو بين الأديان التى تضم أتباعا فى جميع أنحاء العالم prosélytiques

وبين الأديان ذات الطابع المحلى hiératiques أو الأديان الوطنية . ويمكن تقسيم الأديان أيضاً من حيث تعدد الآلهة polythéisme أو وحدة الإله monothéisme . ولكل جماعة ـ كما قلنا ـ عقائدها فيما يتعلق بهذه المبادىء والتصورات. ويعد كافراً كل من ينبذ هذه المعتقدات أو يخرج عليها . فقوة الدين على حد قول منتسكيو هى « قوة العقيدة والاقتناع الذى لا يقبل الجدل » . على أن المبادىء والتصورات الدينية تهدف أيضاً من حيث نتائجها إلى غرض اجتماعى وهى تؤثر بصفة خاصة تأثيراً عظيماً على الأخلاق والقانون (أى التشريع) . أليس احترام الملكية أثراً من آثار التحريم الدينى Tabou ؟ وقد وضح بنجامين كونستان Benjamin Constant(١) قبل فريزر (٢) بمدة طويلة الدور الذى لعبه الدين فى تقدم التشريع وتطور الأخلاق . فالجزاء الدينى هو الذى فتح الطريق ورسم المثال للجزاء الخلقى والجزاء التشريعى . وقد قيل قديماً « إن من لا دين له لا قانون له » وكانت هاتان الفكرتان مرتبطة كل منهما بالأخرى . والإيمان بالأرواح والآلهة كان ولا يزال إلى اليوم مصدراً من مصادر الفضيلة الخلقية .

وكما أن العقيدة la foi تختلف باختلاف الجماعات الإنسانية فكذلك

---

(١) إقرأ كتابه من ص ٢٧٥ — ٢٨١

De la religion considérée dans son développement, I, in-8o.

وتجد فى هذا الكتاب أيضا (ص ٢٩٥ — ٢٩٦) النظرية التى وضحها تيلور Tylor فيما بعد عن النتائج الاجتماعية للأحلام .

(٢) إقرأ كتاب فريزر فى ترجمه الفرنسية .

La tâche de Psyché in-16o., 1914.

وهناك تلخيص ونقد لهذا الكتاب بقلم بولهان فى المجلة الفلسفية :

F. Paulhan: *De l'influence de la superstition sur le développement des institutions*, Revue philosophique, I, 1915.

العبادة le culte التى تعبر عنها لها أيضاً نواحيها المتعددة . والعبادة تشمل أفعالا ومحظورات أى ما نسميه بالشعائر الإيجابية والشعائر السلبية : هناك أشياء يجب عملها وأشياء يجب الامتناع عنها حتى نحصل على رضى الالهة (١) .

فالشعائر الإيجابية أو الشعائر النشطة هى أقوال وحركات : فهى إما « شعائر شفوية » أو « شعائر عملية » . ومن النوع الأول الصلوات ومن النوع الثانى تقديم القرابين . وفى كثير من المجتمعات تحيط هذه الشعائر الإيجابية بحياة الإنسان من المهد إلى اللحد . فالميلاد والتعميد (أو إدخال الطفل فى حظيرة الدين Rites d'initiation) (٢) والزواج والبنى والوفاة وجميع المناسبات التى ينتقل فيها الإنسان من حالة إلى حالة تستدعى حتما أنواعا مختلفة من الشعائر المفروضة . كما أن من الشعائر ما يصحب أحداث المعيشة المختلفة : فهناك أدعية تقال ونذر تنذر عند الشروع فى البناء وفى الصناعة وعند السفر وفى القتال وعند إبرام العقود . كل هذه الأحداث تشترك فيها الآلهة عن طريق بعض الشعائر المناسبة . وقد ازدهر من جديد فى أيامنا هذه الشعور بالقوة الخفية وتعلق كل مغامر أو مقامر بأهداب « خرافة » اعتقد أنها تجلب له الحظ السعيد .

وفى أيام خاصة من السنة تقام الشعائر فى حفلات دينية واسعة النطاق وهذه الأيام هى الأعياد (٣) . وهى تلعب دوراً مهماً فى حياة الجماعة

---

(١) هناك أمثلة حسية لهذين النوعين من الشعائر فى بلاد الجزائر فى مقال للمؤلف
René Maunier: *Le culte domestique en Kabylie, Revue d'ethnographie et des traditions populaires*, VII, P. 248, 265, 1925.

(٢) إقرأ مقال جوبليه والفيلا فى مجلة الأديان ص ١ - ٢٥ :
Goblet d'Alviella, L'initiation, institution sociale, magique et religieuse, Revue de l'histoire des religions LXXI, 1920.

(٣) إقرأ كتاب كورتيه عن الأعياد الدينية .
E. Cortet: Essai sur les fêtes religieuses...., in-16o., 1866.

حيث توقظ وتنمى الشعور بالروابط المشتركة . والغرض من العبادة بوجه عام هو الاتصال بالآلهة ، وطلب العون منهم واجتلاب رضاهم ومغفرتهم والحصول على البركة وإبعاد النقمة واللعنة . وكل الشعائر بلا استثناء ترمى إلى هذه الأغراض جميعاً . ولكن إذا كانت الآلهة تطلب منا العبادة عن طريق التقرب والزلفى فهى تطلب منا أيضاً احترام ما تنهى عنه : وهذا هو السر فى وجود الشعائر السلبيـــة أو المحرمات . وقد عم اليوم استعمال كلمة تابو Tabou فى علم الاجتماع للدلالة على هذا المعنى . وهى كلمة بولينيزية تتصل بعقائد الشعوب البدائية وتكتب أحيانا (tapu) . وتعبر هذه الكلمة عن جميع الأشياء التى يجب الابتعاد عنها أو منع وقوعها وعن جميع الأفعال التى يحرم إتيانها لدرء غضب الآلهة ونقمتهم . والمحظورات وإن كانت سلبية إلا أنها تدخل فى عداد التصرفات الإنســـانية . فهى فى كثير من المجتمعات تحتل مكانا كبيراً فى سلوك الإنسان وتمتزج بجميع أفعاله وما علينا إلا أن نرجع إلى سلسلة المحرمات عند بعض الشعوب البدائية كسكان جزيرة مدغشقر لكى ندرك أهميتها . فمن المحرمات ما يتصل بالأشياء ومنها ما يتصل بالأشخاص ومنها ما يتصل بالأفعال : أشياء يجب ألا تلمس وأشخاص يجب ألا يقع البصر عليهم وأفعـــال يجب ألا تؤتى . وهناك محرمات تتصل بالطعـــام وبالعمل وبالجنس وبالمهنة وبلحظات معينة من الزمان وبقاع معينة من المكان . مجموعة من القواعد التى يجب أن تراعى والنواهى التى يجب أن تجتنب وحدودهما تفصل بين الحـــلال والحرام . ولا يجب أن يختلط الطاهر بالنجس . وإذا كنا نريد أن نجتلب رضا الآلهة والأرواح فيجب علينا أن نعرف كيف نلتزم حدودنا منها .

وهكذا نرى أن الدين له قواعده وهى قواعد أشد صرامة من قواعد القانون والأخلاق واللغة. هذه القواعد تنتهى إلى أفعال إيجابية ومحظورات.

وإذا أنعمنا النظر وجدنا أن تلك الصفات تميز كل تصرف اجتماعى . فالدين له أوامره ونواهيه . والقانون يبيح أشياء ويحرم أشياء . والعرف الخلقى يستحسن أشياء ويستهجن أشياء . واللغة لها تعبيراتها المستساغة وتعبيراتها النابية . حتى الذوق والابتكار فى الهنـــدام يعرف ما يصح وما لا يصح وما يتفق مع الأوضاع السليمة وما يخرج عليها . فالتوافق بين أفراد المجتمع الواحد على القواعد والاصطلاحات يتميز بهذين المظهرين . والقاعدة تنظم ما يجب أن نؤمن به وما يجب ألا نؤمن به . ما يجب أن يكون وما يجب ألا يكون . ما يجب أن يعمل وما يجب ألا يعمل . ما يجب أن يقال وما يجب ألا يقال . ما يجب أن يلبس وما يجب ألا يلبس . فالأفراد فى المجتمع مقيدون ملتزمون لحدود معينة فى أفعالهم وهم كذلك أيضاً فيما يجب أن يتجنبوا من المحظورات . والسلطة - وهى أساس التوافق - يمتد مجالها إلى كل تصرف اجتماعى مشترك .

الفصل الخامس

طرق البحث فى علم الاجتماع

بعد توضيح الغرض من علم الاجتماع وذلك عن طريق تعريفه وتقسيم الظواهر الاجتماعية يتعين علينا الان أن نتكلم عن الوسائل التى يحقق بها علم الاجتماع هذه الأغراض ومعنى ذلك هو الكلام عن منهج علم الاجتماع أو عن طرق البحث فى علم الاجتماع . وقد سبق أن قلنا بوجه عام إن هذا المنهج ينحصر فى عمليات ثلاث : وصف الظواهر الاجتماعية وعرضها عرضاً موضوعياً - ثم مقارنة هذه الظواهر بعضها بالبعض الاخر - وأخيراً محاولة استخلاص النتائج من هذه المقارنة وتفسير سلوك الجماعات داخل نطاق المجتمع . هناك إذن ثلاث خطوات للبحث الاجتماعى ولكل خطوة وسائلها . فتقرير الظواهر ثم التقريب بينها ثم تفسيرها كل ذلك يمكن إجماله فى كلمة واحدة : هى الوصول إلى فهم الحياة الاجتماعية والتعلغل فى صميمها . وينحصر المجال الفنى لكل علم من العلوم فى هذه الخطوات الثلاث . وسأقتصر فيما يلى على بيان المبادىء العامة .

١ — وصف الظواهر الاجتماعية

وصف الظواهر الاجتماعية أو تقريرها هو الخطوة الأولى - كما قلنا - فى دراسة هذه الظواهر دراسة علمية ويطلق البعض على هذه الخطوة أحيانا

« ملاحظة الظواهر الاجتماعية L'observation des faits sociaux ». (١)
وتنحصر هذه العملية فى عزل النظم والمعتقدات وطرق المعيشة التى تسود فى مجتمع ما فى ماضيه وحاضره ثم فى جمع هذه المعلومات وترتيبها . فاذا ما تم لنا ذلك أعملنا الفكر فيها لنتعرف على حقيقتها ونستطيع أن نبرزها فى ثوبها الحقيقى بعيدة عما يشوبها من الشوائب . على أنه يجب أن نتحرز من الحكم عليها وأن ننسى تماما أن هذه النظم والمعتقدات قد توافق هوى فى نفوسنا أو قد لا ترق لنا . ومهمة التخلص من الأهواء والنزعة الذاتية مهمة شاقة ولكنها من ألزم الأمور فى هذه الخطوة . فما من أحد يحب ظاهرة أكل لحوم البشر ومع ذلك يجب على الباحث أن ينظر إلى هذه الظاهرة التى كانت منتشرة إلى وقت قريب فى بقاع عديدة من الأرض نظرة مجردة ويحاول أن يحللها ويعرف أسبابها .

ووصف الظواهر الاجتماعية أو ملاحظتها يكون فى الغالب بطريقتين : الأولى مباشرة والثانية غير مباشرة .

أما طريقة الوصف المباشر فتنصب على الظواهر الحاضرة التى نستطيع أن نشاهدها ونتأملها بأنفسنا كأن نصف نظام الأسرة فى مجتمع حاضر أو نظام قرية أو أحوال طائفة مهنية أو النظام الاجتماعى لشعب بأسره . ويطلق على هذه الدراسات الوصفية للمجتمعات الحاضرة اسم « وصف

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع بصفة عامة :

P. A. Dufau, *De la méthode d'observation dans ses applications aux sciences morales et politiques*, in-8o., 1866.

واقرأ على الخصوص كتاب دوركيم

Les règles de la méthode Sociologique, in-16o., 1895.

وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمود محمد قاسم وطبعته إدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف العمومية .

الوحدات monographie »(١) . وقد أكثرت مدرسة لوبلى Le Play من هذا النوع من الدراسات وبالغت فيه . ونحن نستطيع بهذه الطريقة أن نصف حياة الشعوب فى القـــارات والجزر النائية وهى ما تسمى عادة بالشعوب البدائية . وقد أولع كثير من علماء الإثنوجرافيا أى علم وصف الأجناس البشرية بهذا النوع من الدراسات لما فيه من طرافة . فسافروا إلى هذه الأقطار النائية وتكبدوا كثيراً من المصاعب والمشقات فى سبيل جمع معلوماتهم لأن عالم الأجناس لا تكون لمعلوماته قيمة إلا إذا توافر على جمعها بنفسه عن طريق الملاحظـــة المباشرة . وهنا يظهر الفرق بينه وبين المؤرخ الذى يكتفى غالباً بجمع معلوماته عن طريق الوثائق المكتوبة أو عن طريق ما يرويه الرواة .

وليست مهمة العالم الاجتماعى الذى يجمع المعلومات بنفسه مهمة سهلة كما قد نتصور بل أنها تحتاج إلى كثير من التدريب والمران حتى يستطيع أن يستخلص مادته وسط الخضم المضـــطرب من الأحوال الأساسية والأحوال العارضة ويجمع من المعلومات ما له قيمة بالنسبة لبحثه العلمى ويترك ما عداه . ففن الوصف إذن يحتاج إلى إعداد وتحضير وبداهة .

وأولى وسائل التدريب أو التحضير لهذه المهمـــة - أى مهمة وصف المجتمعات وعاداتها وأحوالها - أن يلم الباحث بلغـــة المجتمع الذى يريد أن يبحثه . فمعرفة لغته تعينه على فهم عواطفه وأفكاره . ويجب أيضا أن يكون للباحث إلمام بتاريخ المجتمع الذى يبحثه وأن يســـبق البحث إقامة

---

(١) للالمام بالوسائل التى اتبعت فى هذه الدراســات الوصفية وخاصــة فيما يتعلق بالصناعة أنظر :

L'année Sociologique X. P. 578 seq.

طويلة فى ذلك المجتمع يكون الباحث فيها على اختلاط تام وصلة وثيقة بالأفراد والجماعات . ويتضح من ذلك أن الملاحظات العابرة والنظرات السريعة التى يقتنصها السياح والمسافرون لا قيمة لها من حيث البحث العلمى. يجب أن يحيا الباحث حياة القبيلة التى يدرسها ويندمج فيها تماماً فيمارس عاداتها ويؤدى شعائرها وبذلك يستطيع شيئاً فشيئاً أن يتعرف على تقاليدها ونظمها . والملاحظة تحتاج إلى كثير من الدقة والحيطة ولكنها تتطلب أيضاً فى كثير من المناسبات الشجاعة والجرأة .

تلى ذلك مرحلة إعداد الوسائل ومعنى ذلك أن الملاحظة يجب أن تعد لها العدة وتهيأ لها الوسائل وتوجه نحو الغرض المطلوب قبل أن يبدأ بها . فاذا أغفل العالم ذلك اختلطت عليه الأمور أمام كثرة الظواهر وحركتها السريعة فلا يستطيع أن يجلو غوامضها . ومن أحسن الوسائل التى يستعين بها الباحث على توضيح بحثه وتحديده استخدام طريقة مجموعات الأسئلة Le questionnaire فبعد أن يألف العالم الوسط الذى يريد دراسته ويكون لنفسه فكرة عن المسائل التى يريد دراستها يقوم بوضع قائمة بالأسئلة التى يصح أن تكون موضوع البحث . فللوصول إلى الحقائق يجب أن نبحث عنها والبحث عنها يستوجب أن يرى الباحث مسائل بحثه بوضوح وسط التعقيد الشامل . وتوجد مجموعات مطبوعة من هذه الأسئلة وهى على نوعين : مجموعات عامة تضم الظواهر التى يمكن أن توجد فى مجتمع ما والتى يصح أن يتجه البحث اليها ومن هذا النوع فى فرنسا مجموعات فوكار Foucart ، ومارات Marin (١) ومجموعات الأسئلة التى وضعها منذ

---

(١) Louis Marin: Questionnaire d'ethnographie, in-8o., 1925.

ويستطيع القارىء أن يطلع على القائمة التى أعدها العلامة موس والتى لم تطبع بعد فى معهد الدراسات الاثنوجرافية بجامعة باريس

ما ينيف على قرن من الزمان أعضاء البعثة العلمية التى صحبت الحملة الفرنسية على مصر . أما النوع الآخر فيشمل قوائم من الاسئلة التى تتعلق ببعض المسائل الخاصة كقائمة تورجو Turgot عن الحياة الاقتصادية فى الصين وقائمتى بوست Post ، كوهلر Kohler عن الحياة التشريعية . وقائمة سير جيمس فريزر عن الحياة الدينية والسحرية وقائمة كيندل Kaindel عن المعتقدات الشعبية أو الفولكلور folklore .

على أنه لا يكفى فى جمع المعلومات التزام الدقة العلمية بل إن هناك جانباً خاصاً يتعلق بالمقدرة الشخصية والبداهة . فالملاحظة تستلزم مواهب خاصة من حسن التصرف ورهافة الحس والتعمق . وانعدام هذه المواهب ينتج عنه أن يمر الباحث بجانب الظواهر دون أن يتنبه لها أو يشعر بها . والعيون المدققة التى لا يفوتها شىء أجدى على المرء من المنظار المكبر . والعلماء الذين اشتهروا بدقة الملاحظة وتشبعوا بروح المجتمعات ودرسوها قليلون جداً فى الواقع ومن أشهرهم كوشينج Cushing فى أمريكا ، ولافكاديو هيرن Lafcadio Hearn فى اليابان ، ودوتيه Doutté فى أفريقيا .

أما الوصف غير المباشر فيتعلق بطبيعة الحال بالظواهر التى كانت سائدة فى العصور الماضية . فاذا كانت هناك استحالة فى أن يعرف العالم هذه الظواهر بنفسه فانه يلجأ إلى معرفتها عن طريق من شاهدوها وكتبوا عنها أى أننا نصل إلى معرفة الظواهر عن طريق مصادرها وعن طريق الوثائق التى كتبت عنها . فتكون دراستنا فى الواقع أقرب شىء إلى التاريخ . ويمكن أن نسلك نفس الطريقة فى دراسة ظواهر الحاضر نفسها وذلك حين نستعين بما يرويه المسافرون والرحالة . ولم تعدم دراسة الاتنوغرافيا « فى حجرة المكتب » دائماً أنصاراً لها . ونحن نصل إلى الحقائق فى هذه الحالة من خلال الشواهد

والمصادر والوثائق . ويعود الفضل فى معرفتنا بالأشياء إلى من شاهدوها وعنوا بتدوين مشاهداتهم .

ولهذه المعـــرفة شرطان أساسيان : الأول البحث عن هذه الوثائق والإحاطة بها إحاطة تامة على قدر المستطاع والثانى مناقشة هذه الوثائق وتحرى نصيبها من الدقة العلمية .

وجمع الوثائق هو عمل الباحث المتخصص . وهنـــاك ثلاثة أنواع من الوثائق :الأول ما يصلنا عن طريق الروايةالشفوية les traditions orales والثانى ما يصلنا عن طريق الملاحظات المكتوبة والثالث مايصلنا عن طريق ما يكتشف من آثار العصور الغـــابرة . ومن النوع الأول ما تتوارثه الشعوب من الأساطير والقصص والحكم والأمثال فعن طريقها نستطيع أن نتلمس الطريق للوصول الى مصدر الحقائق والظواهر الاجتماعية . كما أن الأشعار التى تصلنا عن طريق الرواة وتدون بعد ذلك ذات قيمة عظيمة من هذه الناحية (١). فقد استطاع ازماين Esmein أن يمدنا بدراسة طريفة عن الملكية والعقود فى المجتمع اليونانى القديم عن طريق أشعار هوميروس. كما استطاع فلاك Flach عن طريق دراسته للملاحم الفرنسية القديمة المسماة Chansons de Geste أن يصف لنا عادات النبلاء وتقاليد الأخوة التى تجمع بينهم (٢) . واســـتطاع شارل لانجلوا Langlois بدراسة القصص

---

(١) أنظر :

G. L. Gomme, *On.... the value of folklore as ethnological data, Report British Association for the advancement of Science*, LXVI, 1896.

(٢) أنظر بوجه عام :

A. Hellwig *Die poetische Literatur als Quelle der Rechtserkenntniss, 1905.*

والرسائل الدينية فى العصور الوسطى أن يخرج لنا مؤلفات قيمة عن « الحياة فى فرنسا خلال العصور الوسطى » . أما الوثائق المكتوبة فمنها القوانين واللوائح العامة وخطابات ومذكرات الخاصة وما كتبه المعاصرون من آراء حول المعتقدات والعادات . ويدخل فى عداد الآثار كل ما خلفته لنا العصور الغابرة من أشياء ثابتة ومنقولة مثل بقايا المعابد والقصور وأدوات الصيد والزراعة والأوانى وبقايا الملابس وأدوات الزينة والنقوش المحفورة أو المرسومة الخ . . .

وتلى مرحلة جمع الوثائق ـ كما قدمنا ـ مرحلة مناقشتها ومعرفة قيمتها العلمية . فمن الشواهد ما يكون مزوراً أو مكذوبا . فيجب إذن تقديرها وطرح ما لا قيمة له منها . يجب ـ حسب قول كورنو Cournot ـ أن نزن نسبة « الاحتمال » فى هذه الوثائق سواء أكانت نصوصا تاريخية (١) أو كتابات عن الأجناس البشرية (٢) فهذه وتلك تستلزم الحيطة فى

---

(١) للالمام بقواعد نقد الوثائق التاريخية اقرأ كتاب لانجلوا وسجنبوس
Langlois et Seignobos, *Introduction aux études historiques, P. 44 seq., 1899.*

وكذلك كتاب كورسيل سينيل
Courcelle Seneuil, *Préparation à l'étude du droit*, P. 17 seq., 1887.

وقد بحث هذا الموضوع فى القرن الثامن عشر فى الانسكلوبيديا التى قام بمشروعها ديدروو دالمبرت وذلك تحت عنوان Erudition (طبعة جنيف الجزء الثانى عشر ١٧٧٧)

(٢) أنظر فى نقد المعلومات الإثنوغرافية :
Sumner Maine, *L'ancien droit*, P. 119 seq., 1880.

وكذلك :
Mac Lennan, *Studies in ancient History*, II, P. 27 seq., 1896.

ولم يهمل العلماء نقد روايات الرحالة ويستطيع القارىء أن يطلع على التحوطات التى نصح بها دى بروس فى خطاباته عن إيطاليا
Lettres sur l'Italie (1739).

وكتب فى هذا الموضوع أيضا دى باو
De Pauw, Recherches philosophiques sur les américains, 1770.

واقرأ أيضا روبرتسون
Robertson, Histoire de l'Amérique, trad. franç. 1780.

استخدامها . فكثيراً ما لاحظت اختلافات بالغة بين وثيقتين معاصرتين تتناولان وصف ظاهرة واحدة (١) . ونقد الوثائق قد يكون نقداً داخلياً بحيث ينصب على تحرى الأسباب التى أحدثت الخطأ سواء أكانت هذه الأسباب ترجع إلى عاطفة شخصية أو إلى إهمال أو قلة خبرة وجهل بالموضوع . وقد يكون نقداً خارجياً يتصل بتحديد التاريخ وتعيين مصدر واقعة ما . فقد نعتقد أن المصدر أصلى على حين أنه يكون منتحلا . وقد حدث مثل ذلك فى دراسة الأجناس البشرية ذاتها وخاصة فى دراسة الشعوب الاسترالية . ونقد الوثيقة من حيث إصالتها قد يوفر علينا نقدها من حيث مقدار الثقة بها . لأن الوثيقة المزورة لا يمكن استخدامها بطبيعة الحال .

هذه الخطوة الأولى من خطوات البحث العلمى وهى الملاحظة والوصف سواء أكان مباشراً أو غير مباشر تصل بنا إلى تكوين مجموعة من الظواهر مميزة ومحددة . وقد تصل بنا أحيانا إذا استكملت وسائل البحث وروعى فيها الدقة المتناهية إلى بيانات إحصائية statistiques . إذ يجب أن نتوق بعد أن يتم لنا جمع المعلومات إلى إصدار بيان عددى عنها (٢) . فنستطيع بذلك أن نحدد مدى التوافق حين نحصى عدد المرات التى تتردد فيها ظاهرة من الظواهر . ونصل من ذلك إلى معرفة ما إذا كانت هذه الظاهرة طبيعية أم شاذة فنفصل بين الظواهر العادية والظواهر الشاذة . ونحن نستطيع كذلك أن نستخدم فى الأبحاث المتصلة بالأجناس البشرية وسائل تقرب كثيراً من

---

(١) هناك حالة من هذا النوع فى Année Sociologique المجلد التاسع ص ١٨٤

(٢) أنظر فى تطبيق الطريقة الاحصائية على الملاحظة الاتنوغرافية كتاب مونييه :

R. Maunier, *Les Rites de construction en Kabylie, Revue de l'histoire des Religions*, 1925.

الوسائل الإحصائية . وأكتفى الآن بأن أشير إلى بعضها فمنها الطريقة التى تسمى بطريقة « أصـــول النسب Le procédé généalogique » وقد استخدمها تيلور وريفرز (١) . ومنها الطريقة التى تعتمد على سرد الأفراد لتاريخ حياتهم Le procédé biographique وقد استخدمها ثورنوالد Thurnwald ورادان Radin (٢) . فالطريقـــة الأولى تنحصر فى عمل قوائم للأنساب des généalogies تتضح منها روابط القرابة بين العشائر المختلفة . أما الطريقـــة الثانية فتقوم على سرد التفاصيل الدقيقة لحياة إنسان بحيث تظهر من خلال هذه التفاصيل والحوادث اليومية العادات والعرف المتبع فى المجتمع الذى يعيش فيـــه . وكلا الطريقتين يصل بنا إلى إحصائيات عن الأفعال والعادات المتبعة والتقاليد . وهذا هو أهم غرض يجب أن يرمى اليه وصف الظواهر الاجتماعية .

٢ — مقارنة الظواهر الاجتماعية

المقارنة هى الخطوة الثانية فى البحث العلمى فهى تكمل الوصف وتوضحه فسرد الوقائع فى ذاته لا قيمة له إلا إذا استتبع ذلك مقارنة الظواهر التى

---

(١) لدراسة هذه الطريقة أنظر كتاب ريفرز :

Rivers, The Todas, in-8o., P. 461, seq. 1906.

وكتاب آخر لنفس المؤلف :

La méthode généalogique dans les enquêtes anthropologiques, Revue d'ethnographie et de Sociologie, Nov. 1911.

(٢) اقرأ كتاب رادان :

P. Radin, The Autobiography of a Winnebago Indian, University of California Publications, XVI, 1920.

وقد فصل المؤلف قصة الحياة هذه فى كتابه .

Thunder Crashing.

جمعناها عن مكان وزمان معينين بظواهر أخرى مشابهة لها جمعت فى زمان ومكان آخرين . هناك إذن موازنات تاريخيـــة وأتنوغرافية (١) . فاذا كنا مثلا ندرس النظام الإقطاعى فى فرنسا فان معرفتنا به تزداد إذاقارناه بنظم مماثلة معاصرة له أو غـــير معاصرة فى الشرق أو الغرب (٢) . فان هذه المقارنة هى التى توصلنا إلى تمييز الجوهر من العرض فى نظام ما ومعرفة الظواهر الصحيحة من الظواهر المعتلة وتمييز الصفـــات الأساسية من الصفات العارضة . فقد تختلف بعض الظواهر تبعاً لاختلاف البيئة والظروف المحيطة التى تؤثر فى مزاج الناس ولكننا بالرغم من ذلك نستطيع أن نعثر على مبادىء أساسية أولية تميز الظاهرة التى ندرسها هنا وهناك . فالدراسة المقارنة تؤدى أجل الخدمات للباحث الاجتماعى . وقد تجلت فائدة الدراسة المقارنة على وجه الخصوص فى دراسة الأديان (٣) وفى دراسة اللغات (٤) . فالعلوم ذات مظهر عام وهى لا تتضح إلا بالمقارنة .

---

(١) أنظر .

Otis T. Mason, *Similarities in culture*, American Anthropologist, VIII, 1898.

وانظر أيضا القاموس الطريف الذى كتبه برتون بعنوان :

Dictionnaire du parallèle فى دائرة المعارف اللاهوتية

L'Encyclopédie théologique التى وضعها مين Migne ١٨٥٨

(٢) اقرأ مثالا جيدا للدراسة المقارنة فى مادة *Féodalité* فى الموسوعة الكبرى grande Encyclopédie بقلم شارل مورتيه Mortet

(٣) أنظر:

Goblet d'Alviella, *De l'emploi de la méthode comparative dans l'étude des phénomènes religieux*, Revue de l'histoire des religions XLIV, 1902.

(٤) أنظر :

A. Meillet, *Sur la méthode de la grammaire comparée, Revue de métaphysique et de morale, 1913.*

وتختلف قيمة المقارنة بحسب المنهج الذى تسير عليه . فقد تقتصر على مجرد التقريب بين الظواهر وهو ذو قيمـــة محدودة . وقد نحا هذا النحو سبنسر وعلماء المدرسة الانتروبولوجية الإنجليزية . فان إعداد مصنفات عظيمة تضم بين دفاتها ظواهر مأخوذة عن مصـــادر مختلفة وبحث عنها فى أزمنة وأمكنة مختلفة كما فعل وستر مارك وعلى الأخص فريزر فى مؤلفه المشهور « الغصن الذهبى The Golden Bough » كل ذلك يعين بلا شك على إظهار بعض التشابه بين العـــادات والاصطلاحات المختلفة ويفيدنا فى إظهار عموميتها . ولكن ذلك لا يغنى فى الحقيقة مقارنتها .

فالمقارنة الحقيقية تختلف عن ذلك . إذ أن غرضها المقابلة الدقيقة بين الظواهر لتحديد أوجه الشبه أو أوجه الاختلاف بينها حتى نستطيع أن نصل بعد ذلك إلى بيان أسبابها . فيجب إذن أن نقارن ما يمكن أن يقارن ولا نقتصر على وضع الظواهر المختلفـــة بعضها بجانب البعض الآخر . ويجب أن تقتصر مقارنتنا للمجتمعات على المجتمعات التى من نوع واحد ولذلك فان تقسيم المجتمعات إلى أنواع أو فصـــائل أمر هام بالنسبة لعلم الاجتماع . ونحن إذا قارنا بين مجتمعات من نموذج واحد d'un même type أو من نماذج متشابهة فان تلك المقـــارنة تعيننا أكثر من غيرها على إجراء موازنات مفيدة ومجدية .

ولكن هذه الدراسة الخاصة بتصنيف المجتمعات لم تتقدم بعد تقدماً ملحوظا (١) وقد اعتمد التقسيم فترة طويلة من الزمن على طريقة المعيشة الاقتصادية للسكان فقسمت الشعوب بحسب ما يزاوله السواد الأعظم من

---

(١) أنظر بصفة عامة :

Steinmetz, *Classification des types sociaux*, Année Sociol. III.

أفرادها من مهنة لكسب العيش : فهى إما شعوب تعيش على الصيد أو الرعى أو الزراعة ـ أو جماعات من البدو وجماعات من الحضر وجماعات تجمع بين حياة البـــدو وحياة الحضر (١) . وقد قيل إن حياة البداوة أو الحضارة تؤثر كثيراً على اللغة والعادات والنظم التشريعية (٢) . أما اليوم فان تقسيم المجتمعات يسير وفق نظامها الاجتماعى وبنائها الداخلى constitution ومن أمثـــلة ذلك ما جاء به سبنسر بعد أوجست كومت وسان سيمون حيث مين تطور المجتمعات من الحالة العسكرية l'état militaire إلى الحالة الصناعية l'état industriel . كما مين Taine بين المجتمعـــات الطبيعية كالأسرة والدولة والمجتمعات المصطنعة كالنقابات والأحزاب السياسية (٣) . ويميل بعض علماء الاجتماع المحدثين أمثال طونيز Tönnies ، وجيدنجز Giddings ودوركيم إلى التفرقة بين لفظتى « وحدة اجتماعية communauté ومجتمع Société وهذه التفرقـــة راجعة إلى درجة الائتلاف بين العناصر المكونة للمجتمع أى إلى الفرق بين كلمتى تركيب composition واندماج constitution . فالكلمة الأولى لا تعنى أكثر من تجاور العناصر وإضافة بعضها إلى البعض . أما الكلمة الثانية فتعنى اندماج هذه العناصر بعضها فى البعض الآخر بحيث يتكون منها وحدة قائمة بذاتها .

---

(١) للالمام بهـذه التصنيفات أنظر :

R. Maunier, *La formule de l'évolution dans la production, Annales de l'Institut International de Sociologie*, 1912.

(٢) أنظر مثلا :

L'année Sociologique XI, P. 307-316.

وقد وضح فريزر هذه الفكرة فى

Folklore de l'ancien Testament.

(٣) أنظر :

H. Taine: Sa vie et sa correspondance, t. III, in-16o., 1905.

فتقسيم المجتمعات أو تصنيفها ليس إذن بالشيء الهين وقد حاول مورجان وباول عمل تقسيم شامل للمجتمعات يسير وفق حجمها ونظامها الداخلي ودرجة حضارتها . ونجد في النشرة السنوية لعلم الاجتماع L'année Sociologique (١) محاولة لتصنيف المجتمعات تسير على هذا النمط . ونستطيع أن نضيف اليها ما قلته فيما تقدم عن الجماعات الإنسانية وقد قمت حينئذ بمحاولة سريعة لتصنيف المجتمعات . (٢)

٣ — تفسير الظواهر الاجتماعية

إن مقارنة الظواهر الاجتماعية هي الطريقة الوحيدة التي توصلنا إلى تفسيرها وعلى الأخص إلى تعليل التوافق بينها . إذ لا بد أن يخطر ببالنا أن نتساءل : لماذا نجد في أنحاء متفرقة عادات واصطلاحات متشابهة وما السر في وجود هذا التوافق ؟ هناك نظريتان في تفسير هذه المسألة . الأولى نظرية الانتشار diffusion والثانية نظرية التكوين formation

وتتلخص النظرية الأولى في أن كثيراً من العلماء ظلوا مدة طويلة يفسرون التوافق بين الظواهر والآراء والمعتقدات بأنه راجع إلى التقليد

---

(١) أنظر :

L'année Sociologique, T. XI, P. 286-288 et XII, P. 90-91, 365, 366.

(٢) أنظر في نماذج الحضارة

Vierkandt, *Die Culturtypen der Menschheit, Archiv für Anthropologie*, XXV, P. 61-75, 1898.

وهناك تلخيص كتبه لالوا :

L. Laloy, *L'Anthropologie*, IX, P. 216 seq., 1898.

والى انتقال هذه الظواهر ونشرها من شخص الى آخر . وكان من المسلم به أن التشابه بين الناس (من حيث الآراء والمعتقدات) راجع إلى محاكاة بعضهم للبعض الآخر . واذا كان الصينيون أو الرومان قد عرفوا نظام الأسرة الأبوية Le Patriarcat فلا بد أنهم اقتبسوا هذا النظام عن شعب آخر عاش قبلهم . فالمسألة اذن تنحصر فى البحث عن الأصول les origines لا عن الأسباب ومسألة المسائل هى معرفة من ابتكر أو من الذى ابتدأ فى استعمال اصطلاح ما . وما بقى بعد ذلك يسهل تفسيره اذ أن الهجرة وارتحال السكان من اقليم الى آخر كافيان لنقل هذه الاصطلاحات وتعميمها وتسمى هذه النظرية بنظرية الاستعارة Théorie de l'emprunt . (١) وهى ذات اتجاهين : الأول يعقد الموازنات بين العالم الجديد والعالم القديم عن طريق الفكرة التى كانت سائدة قديماً من أن اليهود قد استعمروا الأرض كلها . وقد اعتقد لافيتو Lafitau أن سكان أمريكا الأصليين قد انحدروا عن اليهود (٢) . واعتقد دى بروس مثل هذا الاعتقاد كما أن بوجانفيل Bougainville كان يدعى أنه وجد فى تاهيتى « آثاراً تدل على أصل متحد مع شعوب العالم القديم » (٣) . أما فى وقتنا الحاضر فقد إتجه

---

(١) أنظر بوجه عام :

E. Freeman, *Comparative politics*, in-8o., P. 15 seq., 1874.

J. S. Stuart Glennie, *The borrowing theory, Archaeological Review* IV, 1889.

(٢) نجد فى مجلة La Revue du XVIIIe. siècle, IV. 1917. مجموعة من المراجع تؤكد أن الديانات الغربية قد اقتبست كلها من الانجيل . وقد كانت هذه نظرية المسيحيين من عهد سان بول وسان كليمنت الأسكندرى الى سان توماس الأكوينى .

(٣) ادعى الاستاذ كاردال لاك الذى كتب

The origin of Maasai, in-8o., 1926.

أن العبيد فى أواسط أفريقيا يرجع أصلهم إلى العبرانيين .

التفسير اتجاها آخر ويحاول بعض العلمـــاء أن يبحثوا عند المصريين القدماء عن الأصل الأول للمعتقدات والنظم التى نراها اليوم . وقد سادت فى وقت ما فكرة مؤداها أن الصينيين قد انحدروا عن المصريين . ومن أنصار هذا الاتجاه فى انجلترا اليوم إليوت سميث Eliot Smith ، وبرى Perry اللذان عمما هذه الفكرة وتوسعا فيها حتى جعلا ريفرز يقبلها (١) . وإن يكن هذا لا ينفى أنهم قد اندفعوا فى استنتاجاتهم وتخيلاتهم إلى حد جاوز المعقول . وهناك نظرية أخرى يروجهـــا جان دى مورجان وهى أن نظم المصريين ليست هى المصدر الأول بل أنه يجب إرجاعها إلى الكنعانيين أو على الأقل يجب علينا للدقة العلمية أن نبحث عن منبع واحـــد تنبعث منه هاتان الحضارتان (٢) .

ومن المؤكد الذى لا جدال فيه أن الناس قد اقتبسوا كثيراً عن بعضهم البعض وأن الأفكار والعادات قد انتقلت عن طريق الهجرة مع التجارة والمحاصيل وأن اختلاط الأديان وامتزاجها قد حدث فى جميع الأزمنة وأن الأساطير والأقاصيص والقوانين قد انتقلت من قارة إلى قارة . وقد اهتمت الأنثولوجيا بمثل هذه الظواهر التى ظلت مدة طويلة دون

---

(١) هناك مجموعة من المؤلفات فى هذا الاتجاه . وللالمام بهذه النظرية فى عجالة اقرأ مثلا :

G. Elliot Smith, Primitive man, in-8o., P. 50 (Extrait des Proceedings of the British Academy, Vol. VII).

واقرأ أيضاً :

W. J. Perry, The megalithic culture of Indonesia, in-8o., 1918.

ولنفس المؤلف أيضاً :

The diffusion of Civilisation.

فى المجموعة التى أصدرها Carter بعنوان :

The new past and other essays, 1925.

(٢) أنظر :

J. de Morgan, La préhistoire orientale, II, P. 248 seq., 1926; cf. I, P. 298 seq.

أن يعيرها الناس أهمية كبيرة . فالشعوب الكبيرة كلها قد نشرت ألويتها فى مستعمرات بعيدة وحملت حضاراتها إلى جهات نائية. وعلى ذلك فالاستعارة إذا نظر اليها فى ذاتها فانها ليست تفسيراً . إذن أن لها شروطها وحدودها والعقبات التى تعترض سبيلها . فهى نفسها محتاجة للتفسير (١) . وهى فى ذاتها وبمفردها لا توضح لنا السر فى تشابه الحضارات . وقد لاحظ فرجسون Ferguson منذ مدة طويلة « أن ما نستعيره غالباً هو ما يتجه ميلنا الطبيعى إلى اختراعه » .

وهنا نصل إلى النظرية الثانية وهى نظرية الاختراع أو التكوين التى يفسر علماء الاجتماع بها ما نجده من التوافق بين العادات والمعتقدات خلال الزمان والمكان . وملخص هذه النظرية أن الظواهر الواحدة والنتائج الواحدة تنتج عن أسباب واحدة . فالتفسير إذن هو البحث عن الأسباب أو تتبع العلاقات بين الظواهر . فنظرية الأصل الواحد monogénisme ليست إلا خدعة ، وتعدد الأصول polygénisme أقرب إلى الحقيقة وأدق . ففى ظروف متشابهة تتفتق أذهان الناس عن اختراعات متشابهة . وإذا صادفتهم مشاكل متشابهة اتجهوا فى التغلب عليها إلى حلول متشابهة . والمعتقدات وطرائق العمل تفرض عليهم أو توحى اليهم عن طريق تشابه المناخ أو تشابه الوسط (٢) ويمكن تلخيص المبدأ الذى يسير عليه علم الاجتماع بأن « تشابه ظروف المعيشة ينتج عنه تشابه الآراء والعادات » .

---

(١) فى مجال التشريع انتقد girard نظرية الاستعارة فى مقال بالمجلة الفلسفية Revue phliosophique (١٨٩٣) وهناك أيضا نقد لنظرية الاستعارة هذه من حيث تطبيقها على القصص الشعبى وهو المجال الطبيعى لها فى كتاب .

J. Bédier, Les fabliaux, 4e. édit., chap. 1er. et VIII, 1925.

(٢) أنظر فى تأثير المناخ والوسط الفصل السابع الفقرة الثالثة .

هذا هو الدرس الذى نتلقاه عن طريقة المقارنة . فالبحث عن تأثير المناخ وتأثير طبيعة الأرض وتأثير الوسط الاجتماعى نفسه وما يترتب على ذلك من تنوع حاجات الناس كل ذلك هو البحث عن أسباب الظواهر الاجتماعية وقد تكون الاصطلاحات محليـــة أو وطنية أو عالمية حسب ما تكون عليه ظروف المكان والوسط (١) . فالاصطلاح يفترض دائماً اصطلاحاً آخر يسبقه كما أن أحد النظم قد يعيننا على تفسير نظام آخر . ولكن كيف نصل الى أسباب الظواهر الاجتماعية إلااذا اتبعنا الطرق التى ثبتت صلاحيتها بالنسبة لعلوم الحياة ؟ ومن هذه الطرق طريقـــة الاتفاق فى الحدوث وعدمه La méthode de concordance حسب تسمية ستيوارت ميل وهى الى جانب طريقة التغييرات المتلازمة Les variations concomitantes من أحسن الوسائل للكشف عن العلاقات بين الظواهر المختلفة . وتتلخص هاتان الطريقتان فيما يأتى : « هناك علاقة بين ظاهرتين .

أولا : عند ما تجتمع الظاهرتان أو تختفيان معاً .

ثانيا : اذا استدعى التغيير فى الواحدة تغير مشابه فى الأخرى .

ثالثاً : اذا كان هناك تقابل أو توازى فيما يعترى الظاهرتين من زيادة أو نقص .

رابعا : اذا كانت ظروف المكان الواحـــد أو الوسط الواحد تؤثر فى كل منهما تأثيراً واحداً . وبالجملة اذا كانت هناك صلة عددية بين الظاهرتين . وقد استخدمت هذه الطرق فى الأثنولوجيـــا (٢) وبذلت محاولات لقياس معامل الارتباط corrélation بين العادات المختلفة قياساً

---

(١) نورد هنا فقرة للعالم الأخلاقى جوبير حيث قال : « هناك أخلاق وعادات تتصل بالطبيعة الإنسانية وهذه توجد دائما فى كل مكان . فقد نقول إن هذا النظام يونانى أو رومانى أو بربرى ولكننى أقول إنه إنسانى لأن النـــاس تشعر بضرورته وتخترعه حين تظهر الحاجة اليه » آراء جوبير

(٢) لتطبيق طريقة التلازم فى الأثنولوجيا أنظر :

Mac Lennan, *The patriarchal theory*, 1885.

عددياً دقيقاً (١) . فاتجه نيبور Niebor هذا الاتجاه فى دراسة الظروف المتعلقة بنظام الرق . وقام هوبهـــاوس Hobhouse مستخدماً نفس هذه الطرق بتحقيق واسع النطـــاق لمعرفة العلاقة بين نظم الشعوب البدائية وبين الحرف التى تحترفها والوسط الذى تعيش فيه . وإذا كان هناك نقص فى النتائج التى حصلنا عليها من تطبيق هذه الطرق فان ذلك راجع فى أغلب الأمر إلى عيب فى وسائل استخدامها . وهذا العيب على وجه العموم هو الاكتفاء بدراسة عدد صغير من الحالات . ومن المحقق أن درجة اليقين فى دراسة العلاقة بين ظاهرتين تزداد أو تنقص بمقـــدار عدد الملاحظات التى نجريها ويطلق على ذلك إسم قانون الأعداد الكبيرة La loi des grands nombres . فاذا استطعنا أن نهيء لدراستنا أكبر عدد من الحالات وأن نستعين بعمليات إحصائية فاننا نصل إلى نتائج تبلغ من الدقة ما بلغته نتائج علوم الحياة . وينتهى بنا ما نلاحظه من التغيرات المتلازمة إلى ما نسميه بمعاملات الارتباط corrélation وهى عبارة عن بيـانات عددية نقيس بها ونعبر بها عما وصلنا إليه من الدقة فى بيان العلاقات بين الظواهر المختلفة وباستخدام هذه الوسائل العلمية توصل بعض العلماء إلى تحديد علاقات سبب ونتيجة بين التغيرات السنوية لأسعار القمح وبين عدد الزيجـات التى تتم كل ســـنة (٢)

---

(١) انظر :

E. Tylor: *On a method of investigating the development of Institutions*, Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland XVIII, 1889.

(٢) هناك قائمة بالعلاقات التى توصل اليها العلماء بتطبيق طريقة معامل الارتباط فى البحث الذى كتبه :

G. Udny Yule *Bulletin Institut international de statistique* XVIII, 1ère partie.

وللالمام بالتحوطات التى يجب مراعاتها اقرأ كتاب سيميان :

F. Simiand, *Statistique et expérience*, in-16o., 1912.

وحساب معامل الترابط أو التلازم يكون بواسطة عمليات معقدة (١) ونحن نقتصر هنا على شرح واحدة من أبسط هذه العمليات لنستدل بها على درجة الدقة التى نستطيع أن نصل اليهـا فى تفسير الظواهر الاجتماعية : لنفرض أن هناك ظاهرتين نتوقع وجود علاقة بينهما . ولنرمز بحرف (C) إلى عدد الحالات التى تتغير فيها هاتان الظاهرتان فى اتجاه واحد سواء بالزيادة أو بالنقصان . وبحرف (d) إلى عدد الحـالات التى تتغير فيها الظاهرتان فى اتجاه مضاد بحيث إذا طرأ على الواحدة زيادة طرأ على الأخرى نقصان أو إذا زادت الواحـدة أو نقصت ظلت الأخرى على حالة ثابتة لا تتغير . وإذا رمزنا أخيراً الى العلاقة بين الظاهرتين بحرف (i) فان هذه العلاقة تكون :

$$\left\{ i = \frac{c - d}{c + d} \right\}$$

ونصل بذلك إلى عدد أو إلى علاقة تتراوح بين - ١ ، + ١ . فاذا كانت (c) تساوى صفرا ومعنى ذلك أنه ليس هناك أى اتفاق فى الاضطراد فان (i) أو رمز العلاقة indice يساوى - ١ . وبالعكس اذا كانت (d) هى التى تساوى صفراً ومعنى ذلك أنه ليس هناك أى تضـاد فان (i) أو رمز العلاقة يساوى + ١ . ومعنى ذلك أن علاقة الترابط بين الظاهرتين قد بلغت أقصاها . وكلما اقترب العـدد الذى يرمز الى العلاقة من الواحد

---

(١) للالمام بالطرق المبسطة أنظر :

J. A. Harris, Biometrika VII, 1909-1910.

وكذلك :

F. Virgilii, Journal Société satistique Paris, Janv. 1912.

الصحيح كلما كان ذلك دليلا على توثق الرابطة بين الظواهر التى ندرسها . وكلما اقترب على العكس من - ١ فاننا نستنتج من ذلك عدم وجود أية علاقة بينها . ونستخلص من ذلك أن العـــلاقات بين الظواهر تختلف من حيث مقدار الاضطراد أو مقدار الصلة التى تكون بينها وأنه يمكننا أن نصل الى قياس درجة هذه الصلة . ونحن ما زلنا بوجه عام بعيدين عن بلوغ هذه الدقة فى قياس الظواهر الاجتماعية ولكن علم الاجتماع يجب أن يضع نصب عينيه الوصول إلى هذا المستوى .

الفصل السادس

تاريخ علم الاجتماع

أولا - مرحلة الاعداد (١)

من المتفق عليه أن علم الاجتماع بالمعنى الذى أوضحناه فيما سبق لم يبدأ إلا فى القرن الماضى (٢) . وقد قيل إن أوجست كومت الذى صاغ كلمة « اجتماع » هو نفسه الذى أوجد العلم . ونحن حين نقرر ذلك فاننا نتجاهل القانون الذى يسيطر على كل معرفة . فكل علم ينشأ عن طريق التكوين والتقدم المضطرد ولا يظهر أبداً طفرة واحدة أو يكون نتيجة لوحى الساعة . والمؤسسون لا بد أن يسبقهم مبشرون ولا يعقل التاريخ دون ما قبل التاريخ . ولا زلت أؤكد أن علم الاجتماع كما أفهمه لم يتأسس ولم يثبت أقدامه الا فى خلال القرن التاسع عشر أو على الأصح فى أواخر

---

(١) سيجد القارىء في هذا الفصل والذى يليه قائمة بالمصادر والوثائق الهامة فى علم الاجتماع مرتبة حسب تاريخ ظهورها . وعلى الخصوص سيجد بيانا بأهم المراجع التى توافرت على جمع المادة التى يستطيع علم الاجتماع أن يستغلها فى أبحاثه .

(٢) أنظر بصفة عامة فى تاريخ علم الاجتماع المراجع الآتية :

Durkheim, *La Sociologie en France, Revue Bleue, 19 et 26 Mai 1900.* Article «*La Sociologie*», dans le recueil *La Science française*, t. I, P. 39-49, 1915.

P. Barth, *Die Philosophie der Geschichte als Sociologie*, 1922.

W. Sombart, *Die Anfänge der Soziologie* dans le recueil *Haupt-probleme der Soziologie* (Max Weber), chap. I, 1923.

وهناك كتاب يقترب كثيراً من وجهة النظر المقارنة التى يعتنقها المؤلف وهو :

A. C. Haddon et H. Quiggin, *The history of anthropology*, 1910.

القرن الماضى . واذا كان هناك حقا مخترع لهذا العلم فيلوح لى أن فرجسون Ferguson كان ذلك المخترع . ثم جاء « المثاليون » les idéologues الفرنسيون فكانوا أول من قام بالدعاية لهذا العلم .

ولكن مرحلة الإعداد كما قلت قد سبقت مرحلة التأسيس . فتأمل الظواهر الاجتماعية ومقارنتها وتفسيرها كل هذه العمليات قد قام بها أناس بطرق قد يكون فيها شيء من الالتواء والغموض . وبذلوا فيها شيئاً قليلا أو كثيراً من الجهد وذلك منذ أزمنة بعيدة . وفى الوقت الذى كانت الفلسفة فيه قد نشرت لواءها كانت الدراسة الوضعية المقارنة للمجتمعات تسلك طريقها ببطء شديد .

وسأشرع أولا فى عرض « ما قبل تاريخ » هذا التكوين ثم أعرج بعد ذلك على التاريخ دون أن يغيب عن بالى لحظة واحدة أن علاقات قد نشأت بين حركات الفلسفة وتقدم علم الاجتماع . فلا بد اذن من التمييز بين مرحلتين : مرحلة الإعداد préparation ومرحلة التأسيس fondation بمعناها الحقيقى . وتنتهى المرحلة الأولى بانتهاء القرن الثامن عشر ونستطيع أن نميز فيها بين ثلاثة أدوار : الدور الأول دور المقارنات المستوحاة من الكتاب المقدس ، والدور الثانى دور المقارنة فى نطاق البحر الأبيض المتوسط ، والدور الأخير دور المقارنة العالمية .

١ ــ المقارنة المستوحاة من الكتاب المقدس

لا نستطيع أن نقول إن هناك دراسة اجتماعية إلا اذا قمنا بمقارنة بين بعض الظواهر التى سبق وصفها إذ أن هذه المقارنة هى التى توصلنا إلى

تفسيرها . ولكن المقارنة ظلت مدة طويلة تقام بين أشياء لا وجود لها إلا فى الخيال . وهناك أشياء لم يكن الإنسان قد توصل بعد الى وصفها عن طريق الواقع فعمد الى تصورها ثم الى تخيلها . وبمثل هذه الطريقة استطاع أن يكون لنفسه فكرة بطريق الفرض والظن عن الحالات البدائية للمجتمع وعمد الى نفس الطريقة فى تتبع نموها وتقـــدمها . فتاريخ الأقاليم النائية ووصفها كان يقوم على الإبداع والخيـــال قبل أن يقوم على المشاهدة والتقرير الحسى . ولا يجب أن نحتقر هذه الحلقة بدعوى أنها لا تمت بصلة لدراستنا . فالواقع أنها وصلتنا إلى المعرفة الحقـــة . إذ تكون عن طريق الخيال حب الاستطلاع نحو معرفة القديم والبعيد وأخذ الناس بعد ذلك يبحثون عن الوثائق التى تحوى تاريخ الإنســـانية المتنائية أو الإنسانية الغابرة ليحققوا بدراستها ما كانوا قد كونوه لأنفسهم من الآراء الخيالية وقد كان الكتاب المقدس La Bible أهم المصادر الأولى لاستقاء الأخبار ولذلك فان المقـــارنة المستقاة منه هى محور الارتكاز الذى قامت عليه الأبحاث الأولى .

وقد اعتقد القدماء أى قبل نزول الديانات السماوية أنهم وصلوا إلى معرفة حياة أقدم الجماعات الإنسانية عن طريق الحدس والتخمين : فأطلقوا على العصور عصر الذهب أو عصر الحديد حسب ما كانت توحيه اليهم مذاهبهم وآراؤهم المثـــالية (١) . فلما جاءت المسيحية أصبح الكتاب المقدس مرجعها فيما يختص بالعقائد . ومن الآراء التى اعتنقها الناس بطبيعة

---

(١) أنظر فى تلخيص آراء القـــدماء عن المجتمعـــات الأولى وعلى الأخص عن « العصر الذهبى » كتاب :

G. Dottin, Les anciens peuples de l'Europe, in-8o., P. 25-32, 1916.

الحال تلك التى وردت فى « العهد القديم » عن أصـــل الإنسان وسقوطه . وهكذا كان الإنجيل أول نص أمكن للإنسان أن يجد فيه مادة لمقارناته (١) ولم يشذ علم الاجتماع عن أنواع المعرفة الإنسانية الأخرى فكان له بذلك أساطيره الأولية .

نستطيع إذن أن نقول إن حب الاستطلاع فى أول مراحله حين شرع فى الوصف والمقارنة قد استعان باللاهوت La Théologie فى البحث عن مادته . وبالرجوع إلى الكتاب المقدس استطاع المفكرون أن يخرجوا لنا فى القرن السابع عشر أولى الدراسات الوصفية العلمية عن تشريع أو دين جماعة إنسانية معينة (٢) ومنـــذ سنة ١٥٤٥ نجد أن فروبين Frobein قد نشر فى مدينة بال «العصور القديمة العبرية» Les antiquités judaïques

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع ما كتبه جيللنيك الألمانى فى النشرة السنوية الجديدة لمدينة هيدلبرج .

Jahrbücher 1893.

G. Jellinek Adam in der Staatstehere, Neue Heidelbeiger

واقرأ ايضا ما كتبه مؤلف هذا الكتاب عن الانجيل وعلم الاجتماع المقارن .

R. Maunier, La Bible et la Sociologie Comparée, Scientia (Milan), 1919.

(٢) من أشهر هؤلاء الكتاب كونايوس الذى كتب عن « الجمهورية العبرانية » سنة ١٦١٧ ـ وليون دى مودين de Modene الحاخام الذى كتب عن «الأوضاع والأزياء التى تراعى اليوم عند اليهود

«Cérémonies et costumes qui s'observent auj. chez les Juifs».

(١٦٣٧) وترجما إلى الفرنسية ريشـــار سيمون سنة ١٦٨٢ ـ وكتب سلدن Selden « Uxor ebraïca » سنة ١٦٤٦ وفى هذا الكتاب الأخير نجد مقارنات عديدة بقوانين الغرب الحالية . وقد واصل بعد ذلك فلورى ودوم كالمى وباستورى ، وسلفاتور استعراض النظم عند العبرانيين . وبلغ من تقدير المستشرق الانجليزى روبرتسون سميث لهؤلاء المؤلفين أنه أهدى اليهم أجل مؤلفاته ـ ولا نزال نجد حتى الآن نصوصا من الإنجيل فى كتب علم الاجتماع الحديثة مثل :

Source-Book in anthropology.

تأليف كروبر ووترمان الذى طبع فى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٠

التى كتبها المؤرخ فلافيوس جوزيف . ومن المؤلفات الهامة التى تستحق الذكر ما كتبه فى كمبردج العالم اللاهوتى الإنجليزى جون سبنسر سنة ١٦٨٦ عن القوانين والشعائر والنظم العبرانية De legibus hebraeorum ritualibus et eorum rationibus . وقد وصف فيه فى ثلاثة مجلدات جميع العادات والتقاليد الخاصة باسرائيل وكان هذا الكتاب مصدراً للمقارنات لا ينضب معينه . وحين عرفت شعوب أمريكا اتجه الناس تواً إلى تشبيهها وإلى عقد المقارنات بينها وبين الشعوب التى تحدث عنها الكتاب المقدس . وقد ظهرت هذه التشبيهات واضحة فى كتابات مونتنى Montaigne الفيلسوف الفرنسى . وجاء بعده كثير من الكتاب وجامعى الأخبار فكانت تتسلط على عقولهم جميعاً بقايا ما رسب فى أذهانهم من قصص الكتاب المقدس حتى لقد قيل إنهم كانوا يدرسون القبائل المتوحشة فى أمريكا ويلاحظون أحوالهم والإنجيل فى أيديهم . ولم تتغير هذه النظرة إلا حين اجتاح أوربا تيار اللادينية فى القرن الثامن عشر . فقد كرس ذوو التفكير الحر Les libertins جهودهم ليمكنوا لعلم الاجتماع أن ينفصل شيئاً فشيئاً عن اللاهوت . ويمم الباحثون وجوههم شطر عالم آخر يبحثون فيه عن مجال لعقد مقارناتهم . وقد لاحظ الناقد الأدبى الأستاذ لانسون Lanson هذا التحول حين كتب عن منتسيكو « أن شعوب الله وقوانينها المنزلة قد احتلت فى كتاباته مكاناً جد ضئيل بالنسبة لشعوب أمريكا المتوحشة وجزر المحيط الهادى » . ومنذ سنة ١٧٦٠ نجد أن كتاباً أمثال دى بروس De Brosses قد استعاضوا بالمصريين القدماء عن شعب اسرائيل فى عقد مقارناتهم بين النظم القديمة والنظم السائدة عند شعوب الجزر النائية . وقد كانت المقارنات كلها حتى ذلك الحين تتخذ من الكتاب المقدس أساساً لها . وظل بعض علماء الإنجليز من أمثال فريزر مخلصين لذلك المنهج وحتى فى أيامنا الحاضرة نجد فى كتابات روبرت لويس ستيفنسون أن

وصف الحياة فى البحار الجنوبية يثير فى نفسه ذكرى الملاحم والمذابح عند الشعوب القديمة . فالزعيم فى هذه الجزر الصغيرة يشبه شاؤول من جميع الوجوه .

على أن الخيـــال لم يفقد كل حقوقه حتى فى « عصر النور » . فحلت الفلسفة محل اللاهوت وعاد المفكرون إلى أحلام القدماء عن العصر الذهبى . وكان الرحالة الأوائل وعلى الأخص منهم من جاب الآفاق البعيدة للتبشير يعودون من البلاد النائية بفكرة وهمية عن « المتوحشين » : فلم يروا فيهم إلا أنهم طيبوا القلب سعداء . وانتشرت بذلك فكرة « المتوحش الطيب le bon sauvage » . وقوامها بعض الملاحظات العابرة التى جمعت من هنا وهناك ، وبعض صفات الفضيلة التى راقت فى أعين الرهبان المبشرين . ومن الطريف أن تنظر إلى نظريات روسو الخيـــالية عن طيبة الإنسان البدائى على أنها من وحى القصص التى كان يرويها رهبـــان الجزويت . ويكفينا مجرد الإشارة إلى تلك الأوهام التى كانت المقارنة فيها تدور فى حلقة مفرغة . وكانت هذه المقـــارنة تقوم على عرض صورتين كلتيهما مفتعلة افتعالا وعلى مقابلة الواحدة بالأخرى لإظهار ما بينهما من بون شاسع . فالصورة الأولى تصور لنا البدائى أى رجل الطبيعة أما الثانية فتصور لنا المتحضر أى رجل المجتمع . وقد فرض هؤلاء الفلاسفة أن الفوضى كانت تعم فى العصور الأولى وأن الإنسان كان يعيش « بدون قوانين » . وكانوا يختلفون فى تقدير سعادته أو تعـــاسته حسب أهوائهم الشخصية . ويبدأ المفكرون من هذا الخيط ليحيكوا حوله تاريخاً خيالياً يبدأ بالقبائل وينتهى بالأمبراطوريات . وقد سار على هذا النمط الشـــاعر سان لامبير Saint-Lambert فى « تحليله التـاريخى للمجتمع » Analyse historique de la Société . وسار فى هذا الطريق بوفون Buffon نفسه العالم الطبيعى

فقد كان يعتقد أن المتوحشين لا يخضعون لزعيم ولا لقوانين ومعنى ذلك أنهم كانوا يتصرفون « حسب أهوائهم الشخصية » . وفى أواخر ذلك القرن الذى نحن بصدده أى القرن الثامن عشر نرى أن كانت Kant الفيلسوف الألمانى يكتب « فروضه » ses conjectures عن العصور الأولى للإنسانية ونجد أن سينانكور Senancour يكتب « تأملاته » Ses Rêveries عن طبيعة الإنسان فى عصره البدائى .

يمكن القول إذن إن هذه المقارنات قد أعوزتها البيانات الصحيحة كما أعوزها المنهج السليم . كان العقل أو بتعبير أصح « الخيال » يقوم فيها مقام الملاحظة المنهجية . على أننا لا ننكر أنه فى هذه الآونة كان الاتجاه قد بدأ يظهر نحو الدراسة « الموضوعية » أى الدراسة الجدية حقاً . كما أن هذه المقارنات قد تركت الباب مفتوحا للنقد اللاذع الذى كان يسوقه أعداء العقيدة للتشكيك فى صحة « الوحى المنزل » . فقد نرى لأمثال هنرى استين Estienne وبايل Bayle وفولتير أن يعقدوا المقارنات بين الشعائر التى يقوم بها المتوحشون وشعائر الكاثوليكيين أو الرومانيين . ولم يكن غرضهم من ذلك الوصول إلى فهم حقيقة هذه أو تلك بل كان غرضهم الوحيد هو النقد والسخرية . على أن هذا النقد وتلك السخرية كانا دائما فى حاجة إلى دعامة قوية من المعلومات الصحيحة التى تشد أزر هؤلاء الكتاب . ولذلك يجب ألا نقلل من شأن هذه المقارنات بل يجب أن نعترف عن طيب خاطر أن اللاهوت والفلسفة قد مهدا الطريق أمام علم الاجتماع .

٢ ــ المقارنة فى نطاق البحر الأبيض المتوسط

إن الباعث على البحوث ذات الصبغة العلمية مرجعه إلى شعور آخر

غير الشعور الدينى أو النقـــد الفلسفى . وهذا الشعور هو الرغبة فى فى حب الاستطلاع وكشف المجهول . وتظهر هذه الرغبة وتعم بين الناس بمجرد الكشف عن شعوب جديدة تقطن أراض نائية . وغالباً ما تبدأ حركة الأسفار والتغرب بعد مرحلة الكشف والتنقيب . وحين يبدأ الناس فى ترك أوطانهم للسفر أو للإقامة فى بلاد بعيدة لا تلبث أن تتفتح أمامهم آفاق جديدة للملاحظة ثم المقـــارنة ويجدون فى ذلك لذة كبيرة وإشباعا لحاجتهم للعلم . وقد كانت حركة الاستعمار منذ أزمنة بعيدة الأساس الذى قامت عليه الدراسات المقارنة بين الشعوب . ومنذ أن استقر البحاثة بين القبائل والشعوب النائية أصبح من المحتم وجود علم الاجتماع . وظهرت منذ ذلك الحين الرغبة فى الوصف لذاته وفى المقارنة لذاتها . ولا نغالى إذا قلنا إن التقدم الذى أحرزه علم الاجتماع ظل إلى مدة طويلة رهناً باكتشاف أراض جديدة وبارتحال العلماء اليها ليتوفروا على كشف مجاهلها . وقد سبق أن قلنا إن الدراسة الحقـــة لا بد لها من إقامة طويلة فى المكان الذى نرغب فى دراسته . ولذلك فان الدراسة المقارنة للمجتمعات قد مرت بطورين أساسيين تم فى خلالها كشف مجاهل العالم . أما الطور الأول وهو القديم ففيه كشفت الأراضى الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط : أى سواحل أوروبا وآسيا وأفريقيا مع التوغل قليلا فى الداخل ويمتد هذا الطور حتى أواخر القرون الوسطى . أما الطور الحديث ونستطيع أن نسميه بالطور العالمى La phase universelle حيث كشفت فيه مجاهل العالم شرقا وغربا فقد مكن العلماء من الملاحظة والمقارنة على نطاق واسع بين شعوب تختلف فيما بينها أشد الاختلاف مبعثرة فى جميع أنحاء الكرة الأرضية. وقد بدأ هذا الطور بكشف الهند ونستطيع أن نحدد فيه ثلاثة مراحل مرحلة اكتشاف أمريكا ومجـــاهل آسيا ومرحلة اكتشاف جزر المحيط

الهادى ، وأخيراً مرحلة اكتشاف مجاهل أفريقيا . وهذه المراحل الثلاثة امتدت خلال ثلاثة قرون .

* * *

قامت شعوب اليونان والرومان فى العصور القديمة ببعض الفتوحات واستطاعت بفضل هذه الفتوحات أن تلاحظ وتقارن . وقد بدأ اليونان عن طريق الكشف فى إشباع نهمهم للمعرفة (١) . وتبعهم بعد ذلك الرومان. وبدأت الأبحاث حول تعداد الشعوب ووصفهـــا منذ القرن السادس قبل الميلاد . فقام هيكاتيه دى ميلى Hécatée de Milet ببحث قلده فيه بعد ذلك إراتوستين Eratosthènes وقسم فيه الشعوب المعروفة بحسب أوصافها وقد اختلطت الحقائق فى بحثه هذا بالترهات والأساطير . وقد كان المؤرخ هيرودوت أول من استطاع فى القـــرن الخامس أن يعطينا صورة غنية بالحقائق عن الحياة الاجتماعية عند الشعوب « المتبربرة » كما كان يسميها الإغريق (٢) وكان هيرودوت نفسه رحالة محبا للأسفار وبالرغم من سهولة تصديقه لكل ما كان يذاع حوله من الأخبار فقد كان دقيق الملاحظة وقد ترك لنا مؤلفات خالدة ويعد « تاريخه » مصدراً ومثالا يحتذى به . وقد

---

(١) أنظر ما كتبه ريفو عن الأبحاث الأنثروبولوجية فى عصر اليونان .

A. Rivaud, Recherches sur l'anthropologie grecque, Revue Anthropologique, tomes XXI-XXIII, 1911, 12, 13.

(٢) أنظر :

A. Grasse, *Herodot als Ethnologe*, in-8o., 1904.

J. L. Myres, dans R. R. Marett, *Anthropology and the Classics*, 1908.

G. Fougères, *Hérodote voyageur, Revue des Cours et Conférences* XXI, 1913.

راع هنرى استيين Estienne عند ما قام بعد ذلك بعشرين قرن أى فى عصر النهضة بتمجيد هيرودوت ما وجده من الحقائق عن العادات الغريبة التى لاحظها هيرودوت عند الشعوب القديمة وزاد من إيمانه بقيمتها ما وجده من العادات المشابهة لها فى العالم الحديث . وقد انتهى من بحثه هذا إلى توضيح الفائدة الجليلة التى تنتج عن « مقارنة التواريخ بعضها بالبعض الآخر » وعلى الأخص تواريخ العصور القديمة بتواريخ العصـــور الحديثة . وقد كتب تيوسيديد Thucydide فى هذا القرن الخامس نفسه « تاريخ اليونان » واستعان فى وصف حياتهم الأولى بكثير من المقارنات (١) ففتح بذلك باب المقارنة . وجاء بعد ذلك بقرن واحد أرسطو الذى لم يشتهر بالفلسفة فحسب بل كان أيضاً عالماً دقيق الملاحظة وجامعاً للأخبار وقد كتب مؤلفاً عظيما ضاع بأكمله تقريباً عن نظم ودساتير الشعوب اليونانية . ومن حسن الحظ أن عثر منذ أكثر من ثلاثين سنة على الجزء الخاص بدستور أثينا (٢).

وبعد عصر أرسطو فتح المجال أمام جامعى الأخبار Les compilateurs الذين مهدوا بعملهم هذا الطريق أمام من تفرغوا للمقارنة les comparateurs فظهر منهم سترابون Strabon فى القرن الأول قبل الميـــلاد وظهر بعده بقرن واحد ديودور الصقلى وقد ترك الإثنان مجموعات ضخمة من الحوادث والعادات . وفى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح كتب بوزانياس Pausanias « مرشداً Guide » لبـــلاد اليونان وكدس فيه دون ترتيب الأساطير

---

(١) أنظر :

P. Roussel, Thucydide et les Barbares, Revue des Etudes anciennes, 1923.

(٢) ظهر الكتاب الذى فى يد القارىء فى سنة ١٩٢٩ . فكأن هذا الكشف يرجع إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر (المترجم) — أنظر الترجمة الفرنسية لدستور أثينا فى مجموعة Guillaume Budé .

والعادات والقوانين . ولكن الرومان فاقوا اليونان فى هذا المضمار وظهر فيهم من جامعى الأخبار أكثر مما ظهر من النقـــادة والباحثين . وقد تركوا مجموعات من الأخبار عاش عليها العصر الوسيط واعتمد عليها عصر النهضة فى بدأ حركة إحياء العلوم . فظهر فى القرن الأول قبل الميلاد پومپونيوس ميلا وبلين Pline . وظهر بعد ذلك فالير مكسيم Valère Maxime كما جاء بعده سولين Solin وقد ترك هؤلاء جميعاً مجموعات تعـــد مؤلفات فى علم الاجتماع الوصفى (١) .

أمدت هذه الكتب الوصفية المفكرين بموضوعات لمقارناتهم . فتمكن أولو جيل Aulu Gelle فى القرن الثانى قبل الميلاد من عقد مقارنة أثبت فيها بعض أوجه الشبه بين قانون الإثنى عشر مائدة La loi des douze Tables وقوانين السكان الأصليين فى البلاد المفتوحة . فكانت هذه أول محاولة لوصل التاريخ بالإثنوغرافيا .

وفى العصر الوسيط توغل الرحالة بعض الشىء داخل الأراضى عبر

---

(١) أنظر على الخصوص بعض المؤلفات الرومانية التى ظهرت فى العصر الحديث ومنها

Pomponius Mela, *De Situ Orbis*, édition Didot 1863. —

Valère Maxime, *Facta Dictaque memorabilia*.

فى الفصل السادس من هذا الكتاب عرض لعادات البلاد الاجنبية فى ذلك العصر

Solin, *Polyhistor*.

ظهرت ترجمة فرنسية لهذا الكتاب فى سنة ١٨٤٦ وتحتوى على ٦٧ فصلا. وقد طبعت مؤلفات سولين لأول مرة فى ١٤٧٣ وظهرت منها عدة طبعات فى القرن السادس عشر وفى القرن السابع عشر ظهرت طبعة مذيلة بنقد وشرح بقلم سوميز Soumaise فى جزأين كبيرين . وتعد مؤلفات سولين حلقة اتصال هامة بين مرحلة الوصف القديمة ومرحلة النقد الحديثة .

شواطىء البحر الأبيض المتوسط . فكشف العالم الغربى بعض مناطق آسيا التى كانت مجهولة على حين توغل العرب فى فتوحاتهم فى بعض مناطق أفريقيا . فكتب ابن حنكل فى القرن العاشر الميلادى موسوعة جاء فيها على على ذكر المسالك والدروب ووصف الممالك . ثم تعددت السفرات التى قام بها الحجاج والمحاربون فى الحروب الصليبية وجاء فى عقبهم التجار ورجال الكنيسة المبشرون الذين اندفعوا فى مغـــامراتهم حتى بلاد التتار وحدود الصين . وقد عاش ماركو بولو البندقى الأصـــل فى الصين ربع قرن من الزمان ونقد عادلتها وعنى بالفصل بين ما رآه بنفسه وبين ما كان يسمعه عن طريق الغير . ثم ظهرت بعد ذلك طبقة أخرى من جامعى الأخبار الذين جمعوا أخبارهم فيما سموه المرايا les miroirs والكنوز Trésors والصور Images وقد ذاعت هذه الكتابات بين الناس على شكل مخطوطات (١) . وظهرت أولى ترجمات القرآن منذ سنة ١١٤١ وما أن جاء القرن الرابع عشر حتى كان الناس فى أوروبا على معـــرفة تامة بنظم المسلمين وعاداتهم . وفى القرن الخامس عشر كتب بيير دايلى Pierre d'Ailly والبابا سلفيوس إنياس مؤلفات فى وصف العالم . ولم يقتصر العصر الوســـيط على جمع المعلومات والأخبار بل ظهر فيه أيضاً بعض النقاد والشراح وإن شئت فقل بعض من اهتموا بالدراسة المقارنة . وقد عقد روجر بيكون فى القرن الثالث عشر فى مؤلفه المشهور Opus Majus مقارنات بين الدين المسيحى والعبادات الوثنية وخرافات عباد الأصنام كما قارن أيضاً بين الدين المسيحى نفسه وبين الديانات اليهودية والإسلامية . وفى ذلك الوقت كتب جرفيه

---

(١) أنظر قائمة هذه المخطوطات عن « حالة العـــالم » و « حكومات العالم » فى كتاب :

Doutrepont: *La littérature française à la cour des ducs de Bourgogne*, in-8o., P. 273, 1909.

دى تلبورى مؤلفاً عن المعتقدات والعادات الشعبيـــة ويعد أول مجموعة « للفولكلور Folklore » الأوربى . وهكذا نرى فى هذه المؤلفات التى ظهرت فى العصر الوسيط دراسات عن بعض العادات الغريبة وعن تعدد الزوجات وظاهرة أكل لحوم البشر كما نعثر فيها على ملاحظات قيمة عن أمزجة الشعوب المختلفة مختلطـــة ببعض الخرافات عن الأقزام وعن القديس يوحنا (١) على أن هذه المقارنات ظلت إلى ذلك الحين قاصرة على البلدان القريبة التى تقع فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

٣ ــ المقارنة ذات النطاق العالمى

تم كشف العـالم فى أقـــل من ثلاثة قرون وبذلك امتد مجال المقارنة أولا إلى العالم الجديد ثم إلى جزر المحيط الهادى وأخيراً إلى قلب القـارة الإفريقية . فأصبحت المقارنة ذات طابع عالمى وبدأ بذلك العصر الحديث فى محيط العلوم الاجتماعية .

ولقد قام كثيرون برحلات إلى جزر الهند الشرقية والغربية تحملهم السفن عبر البحار . ونستطيع أن نجد ذكر هذه الرحلات منـــذ أوائل القرن السادس عشر حيث نجد أن رابليه Rabelais كاتب فرنسا العظيم فى ذلك العصر قد ســـير بطله بنتـا جرويل Pantagruel إلى جهات نائية فى البلاد التى كان قد تم كشفها فى ذلك الوقت . وأخذت الوثائق تتجمع لدينـا

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع كتاب لانجلوا :

Ch. Langlois: La connaissance de la nature et du monde au Moyen-Age, 1911.

منذ ذلك الحين ولم يكتف الرحالة بكتابة ما شاهدوه بل إن الكثير منهم عاد يحمل آثاراً من الأقاليم التى زاروها. ويحدثنا التاريخ عن «قاعة الغرائب» التى احتفظ فيها هنرى الرابع بما جمعه من التحف والعاديات ويمكن أن نعدها النواة الأولى لمتاحف الإثنوغرافيا الحديثة. وقد وصف لنا مارمول ودابر Marmol et Dapper أفريقيا فى ذلك العصر نفسه. وفى القرن السابع عشر توغل تافرنييه Tavernier فى أسفاره حتى جزائر السوند واليابان. ووصف لنا الجزويت شعوب أمريكا وقام الأب شارفوا Charlevoix بعد ذلك بتلخيص أبحاثهم (١). وقد رجع شاتوبريان إلى هذه الأبحاث والكتابات ليستمد منها عناصر مؤلفاته عن الإنسان البدائى. وفى القرن الثامن عشر كشف لنا بوجانفيل وكوك أحوال جزر المحيط الهادى (٢).

ويستحسن أن نضع على حدة الرحالة — المقارنين، إذا صح أن نطلق عليهم هذه التسمية: أولئك الذين عنوا أثناء ملاحظاتهم بعقد المقارنات بين ما شاهدوه وبين ما عرف فى جهـــات أخرى. فقربوا بذلك بين الغريب

---

(١) أنظر مقال ماك جوير عن علاقة الجزويت بالاثنولوجيا

J. D. Mac Guire, *Ethnology in the Jesuit Relations*, American Anthropologist, nouvelle série III.

وأنظر أيضاً:

La collection des Lettres édifiantes et curieuses, publiée en quatre vol. in-4o., par Aimé Martin, en 1838.

(٢) وقد مهد القرن السابع عشر لمثل هذه الاكتشافات. ففى سنة ١٦٥٦ تجرأ موسكاردو وذكر لنا أن الأحجار التى تسمى «بأحجار الصاعقة» وليدة الصناعة الانسانية وقد كان الناس يعتقدون أنها تسقط من السماء. أنظر:

Ed. Fournier: Le vieux-neuf, histoire ancienne des inventions...., III, 1877.

وانظر أيضاً:

A. Vayson, Les Présurseurs de la préhistoire, L'Anthropologie, XXXI, Nov. 1921.

l'exotique والقديم l'archaïque . ومهدوا لإيجـــاد تفسير عام لذينك النوعين من الظواهر . وقد كان أكوستا Acosta أول هؤلاء جميعاً . فمنذ سنة ١٥٩٠ حاول فى مؤلفه « التاريخ الطبيعى والخلقى للهند » Histoire naturelle et mormale des Indes أن يقارن بين الحديث والقديم . ويعد فرنسوا برنييه النموذج الكامل لهؤلاء الرحالة الفلاسفة وهو طبيب من أنصار جماعة جاسندى Gessendi ذوى التفكير الحر عاش مدة طويلة فى الهندوستان ودخل فى خدمة المغول . وقد أثار فى « خطابه إلى شابلان » عن خرافات الهند الذى ظهر فى أواخر القرن السابع عشر عدة مسائل على جانب كبير من الجدة والطرافة . ولا ننسى أخيراً لافيتو Lafitau أحد الجزويت الذين اهتموا كثيراً بالمقـــارنة وساروا فيها إلى حد التطرف وقد ذكرنا من قبل أنه حاول أن يجد مجالا للتقريب بين اليهود وشعوب أمريكا من حيث الأصل . (١)

أعانت تلك الحركة جامعى الأخبار على القيام بعملهم منذ وقت مبكر . فتكاثرت المؤلفات التى تضم بين طياتها شتى المعلومات والحوادث وظهرت أول المجموعات لعلم الاجتماع الوصفى مقسمة بحسب ما تدرسه من الشعوب وتعد المجموعة التى أصـــدرها بويموس Boemus (١٥٢٠) عملا من أعمال العصر الوسيط . فلم يأت فيها على ذكر أمريكا (٢) . وتحتوى هذه

---

(١) أنظر كتابه :

Moeurs des sauvages américains comparées aux moeurs des premiers temps, 2 Vol., in-4o., 1724, édition abrégée en 1839.

(٢)

Mores, leges et ritus omnium gentium, per Joannem Boemum, 1561.

المجموعات من العادات والنظم الغريبة على كثير من الخرافات ولكنها تشتمل أيضاً على كثير من الحقائق . ونحا نفس هذا النحو أندريه تيفيه Thevet مؤلف « الكوزموغرافيا العالمية » (١٥٧٥) . وقد قدم لنا أول ما عرف عن شعوب أمريكا فى مؤلفه «عجائب فرنسا فى بحار الجنوب Singularitez de la France Antarctique » وأصبحت فكرة اختلاف النظم والعادات الإنسانية فكرة عامة فى القرن السادس عشر . وقد عبر بيير ميسى Pierre Messie بوضوح عن هذه الفكرة فى كتابه « دروس متنوعة Leçons diverses » . وفى القرن السابع عشر ظهرت عدة مؤلفات فى فى وصف الشعائر الجنائزية (١) . وفى القرن الثامن عشر ظهرت مجموعات ضخمة يطلق عليها اسم « الموسوعات Encyclopédies » وتحتوى على وصف عادات الشعوب المختلفة وهى جميعاً على نمط موسوعة فايتز Waitz ومن هذه الموسوعات ما هو مقسم بحسب المناطق وبحسب الشعوب مثل « تاريخ الرحلات Histoire des Voyages» للراهب بريفوست Prévost الذى ظهر فى سنة ١٧٤٦ ثم طبع لاهارب Laharpe له ملخصاً فى ٢١ مجلداً ومن هذا النوع أيضا مجموعة الأب لامبر Lambert وهى سهلة التناول حسنة التقديم يستطيع الطالب أن يأخذ منها فكرة عما كان يعتقد الناس أنهم يعرفونه فى ذلك العصر (٢) . وكذلك المجموعات الكبيرة المحلاة بالصور الجميلة التى أصدرها برنارد بيكار Bernard Picart عن الحفلات والعادات الدينية . (٣)

---

(١) منها مؤلفات جيشار Guichard (١٦٠١) ، وموريه Muret (١٦٠٧). وهذا الأخير أكثرها اختصاراً ولكنه يمتاز بالوضوح .

(٢) Abbé Lambert, Histoire générale, civile, naturelle, politique et religieuse de tous les peuples du monde, 14 Vol., 1750.

(٣) Bernard-Picart, Cérémonies et coutumes religieuses de tous les peuples du monde, édition abrégée en 4 Vol., in-folio, 1783.

وهناك نوع آخر من المجموعات مقسم بحسب المادة ويجمع فى مكان واحد كل ما عرف عن ظاهرة معينة وذلك على الطريقة التى سار عليها من بعد وستر مارك وفريزر . وسار على هذا النظام « القاموس العالمى للعادات Dictionnaire universel des Mœurs (١) وكذلك المؤلف الكبير الذى ألفه عالم جليل أتى عليه النسيان وهو المحامى ديمونييه Démeunier الذى ترجم رحلات كوك وألف « روح العادات L'esprit des Usages » وهو موسوعة فى ثمانية عشر كتابا عن النظم الإنسانية تخلب الألباب بما حوته من المعلومات وجمال التنسيق . وقد رتب المؤلف فى هذه الموسوعة القوانين والنظم والعادات بطريقة منهجية لا تخلو من فائدة عظيمة حتى فى وقتنا الحاضر . ويعد ديمونييه من أعظم العاملين على نهضة علم الاجتماع المقارن .

ولقد ظهر فى إثر جامعى الأخبار طائفة من العلماء ممن عنوا بالتعليق des commentateurs أو على الأصح بالمقارنة des comparateurs وكان ديمونييه كما قلنا أحد هؤلاء العلماء الذين انكبوا على ما جمع من الوثائق ينقبون فيها عن الصلات بين الظواهر المختلفة ويحاولون أن يستخلصوا منها المقارنات الشائقة . لقد قيل فى سخرية عن هؤلاء العلماء « أنهم درسوا علم الاجتماع فى منازلهم » La sociologie en chambre مع أن بعضهم قام برحلات للمشاهدة والدراسة . ومهما قيل فيهم فانهم قاموا بدور أساسى فى تكوين علم الاجتماع ويحق لهم أن يحتلوا المكان الأول

---

(١)

Dictionnaire universel, historique et critique des moeurs, lois, usages et coutumes...., par Costard, Fallet, et Contant d'Orville, 4 Vol., in-8o., 1772.

بين طائفة المبشرين بذلك العلم وبعد مونتنى أحد هؤلاء العلماء فقد وصف فى كتابه « المحاولات Les Essais » اختلاف العادات كما لاحظ توافقها خلال زمن ومكان معينين . وانتشرت رويداً رويداً الفكرة بأن الشعوب القديمة قد مرت بحالات من البدائية كتلك التى تعيش فيها مجتمعات البدائيين فى عصرنا الحديث . واستمرار هذه الحالات ردحا من الزمن جعل الناس يحكمون بضرورتها ثم تدرجوا من هذا الشعور إلى الاعتراف بأن تشابه الأسباب لا بد أن يتولد عنه تشابه النتائج . وإليكم بعض التواريخ المهمة التى تحدد مراحل ذلك التطور :

فى سنة ١٦٠٩ حاول مارك ليكاربو Lescarbot أن يجد مجالا للتقريب بين هنود العالم الجديد وبين « بعض الشعوب القديمة التى عاشت من قبل » (١). وجاء فى أثره جروتيوس Grotius (١٦٢٤) فقارن بين المتوحشين وبين الشعوب الفطرية القديمة . وحاول فونتنيل Fontenelle أن يجد وجها للشبه بين أساطير سكان أمريكا وأساطير اليونان القديمة وأراد أن يخلص من ذلك إلى أن الأسطورة قد انبعثت من تلقاء نفسها فى مرحلة تكوين المجتمعات (١٦٨٦) . أما لوك Locke (١٦٩٠) فقد كان يرى أن أحوال هنود أمريكا صورة طبق الأصل من أحوال الشعوب التى عاشت فى الأزمنة القديمة .

ولم تكن هذه إلا ملاحظات عابرة . إذ ما لبثت أن ظهرت مؤلفات

---

(١) وذلك فى كتابه :

«Histoire de la Nouvelle-France».

أى كندا — وقد قام ليكاربو بنفسه برحلة فى تلك البلاد . وكان محاميا مثل ديمونييه وكذلك نجد عندهما الاستعداد للملاحظة ودراسة القوانين والعادات .

خاصة عنيت ببيان وتوضيح التوافق بين العادات : وكان أولها فى سنة ١٧٠٠ كتابات نويل الكسندر (١) . ثم جاءت على الأخص كتابات تورنمين Tournemine أحد الآباء اليسوعيين الذى استطاع أن يحدد بوضوح مبدأ المقارنة (٢) . وأخيراً كتابات الرحالة لاكريكنيير La Créquinière الذى حدد التشابه بين العقائد الدينية وشعائر الزواج عند الشعوب القديمة من ناحية وعند الشعوب الشرقية فيما وراء البحار من ناحية أخرى ولكنه حاول فى عناد أن يفسر هذا التشابه عن طريق الاستعارة (٣) .

وقد كانت كتابات هؤلاء المؤلفين الثلاثة فاتحة للقرن الثامن عشر . فانتشرت خلال ذلك القرن فكرة أن « المتوحشين يمثلون العصور القديمة فى وقتنا الحاضر » حسب ما قاله جوبير Goubert فيما بعد وقد صورهم لنا فولتير على هذه الصورة واستطاع البعض أن يستخلص نتائجه من هذا الاتجاه . ولكن البعض الآخر من أمثال فيكو وهيوم استمسكوا بوجهة نظر التاريخ البحت أو على الأصح فلسفة التاريخ وصموا آذانهم عن سماع

---

(١) أنظر :

Natalis Alexander, *Conformité des cérémonies chinoises avec l'idolâtrie grecque et romaine*, in-16o., 1700.

التوافق بين الحفلات الدينية عند الصينيين وبين الوثنية عند اليونان والرومان .

(٢)

Le P. de Tournemine, *Projet d'un ouvrage sur l'origine des Fables*. Mémoire de Trévoux, Nov. Déc. 1702.

(٣)

De la Créquinière, *Conformité des coutumes des Indiens Orientaux avec celles des Juifs et des autres peuples de l'antiquité*, in-16o., 1703.

التوافق بين عادات الهنود الشرقيين وبين عادات اليهود والشعوب القديمة الأخرى

صوت الأنثوغرافيـــا . ونشر Goguet كتاباً بعنوان « أصل القوانين L'Origine des lois» حاول فيه أن يتتبع منذ الأصل المراحل التى مرت مرت بها العادات فى تطورها وأن يحدد نماذج معينة للحضارات . وحاول الرئيس شارل دى بروس وكان رحالة من رجال القانون مثل ليكاربو أن يقرب فى كتابه « الآلهـــة الطوطمية Les Deiux Fétiches» بين الشعوب النجرويدية (أى سكان أواسط أفريقيا) وبين قدماء المصريين (١) . وقد استخلص دى بروس نتائج قيمة من مقارناته وأهم هذه النتائج أنه وصل إلى فكرة « أن الأفعال الواحدة تصدر عن مبدأ واحد » . كما أنه وضح فى كتاباته مبدأ السببية Causalité ومبدأ الضرورة nécessité . وبين أنه من الخطأ أن نتخيل ما كان يستطيع الإنســـان أن يقوم به من أفعال بل يجب علينا أن نلاحظ « ما يقوم به من أفعال فى عالم الواقع » . وقد توصل عن طريق المقـــارنة رأساً إلى التفسير ولكنه خلط فى تفسيراته بين عامل الانتقال transmission (أى انتقال العادات من مكان إلى آخر عن طريق الهجرة الخ ..) وعامل التكوين formation (أى نشأة العادات فى البيئة التى لوحظت فيها) (١) كما فعل بعده بسنوات قليـــلة زميله ديمونييه الذى جاء ذكره فيما سبق . وقد استطاع الأب برجييه Bergier أن يكتب بعد ذيوع أمثال هذه الدراسات أن الناس يتشابهون « طالما وجدوا فى ظروف واحدة » . ونصادف بعد ذلك تلك العبارة الغريبة التى كتبها دوكلو

---

(١)

Du culte des dieux fétiches, ou parallèle de l'ancienne religion de l'Egypte avec la religion actuelle de Nigritie, 1760.

عن عقيدة الآلهة الطوطمية ـ أو موازنة بين ديانة مصر القديمة وبين الديانات الحالية عند شعوب أفريقيا .

٢) راجع الفصل الخامس (المترجم)

Duclos فيما كتب عن التجارب القضائية وهى أن « العقل الانسانى أينما كان يحتوى على بذور الجنون وهذه البذور تنبت فى كل بيئـــة من تلقـاء نفسهـا » .

ولو أن دى بروس عنى بدراسة حياة المجتمعات من جميع نواحيها بدلا من أن يقتصر على دراسة ظاهرة الدين لاستحق دون منازع لقب مؤسس علم الاجتماع . ولكنى أعتقد أن من يستحق هذا اللقب هو آدم فرجسون Ferguson أحد علماء المدرسة الأسكوتلندية التى ينتمى إليها أيضاً روبرتسون وآدم سميث . ولقد كان لهذه المدرسة كثير من الآراء الجديدة المثمرة التى تركت فى عقول الناس أثراً خالداً . ويدين لها الفيلسوف الفرنسى بنجامان كونستان Benjamin Constant بكثير من الفضل حيث سافر للدراسة فى أدنبره وتعلم هناك « كيف يتأمل أخلاق الناس » . ولا نستطيع أن ننكر تأثير المدرسة الأسكوتلندية على زعمـــاء الحركة المالية فى فرنسا « Les idéologues » الذين أثروا بدورهم على آراء جان باتيست ساى Jean-Baptiste Say وسان سيمون . وقد كتب روبرتسون فى « تاريخ أمريكا » أن التشابه فى العادات « نتيجة حتمية لحالة من التشابه فى تكوين المجتمع » . وإذا كان فرجســـون (١٧٢٣ — ١٨١٦) قد استوحى مونتسكيو فى بعض آرائه فانه قد فاقه فيما وصل اليه من نتائج فلم يقتصر على التأكيد بل وضع مبادئه موضع التحقيق العملى وقام بمحاولة فى كتابة « تاريخ المجتمع المدنى » (١) تتبع فيها نماذج المجتمعات والأشكال المختلفة للنظم

---

(١)

Essay on the history of Civil Society, 1767.

وترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية فى ١٧٨٣ بعنوان :

Essai sur l'histoire de la Société Civile.

معتمداً فى ذلك على المعلومات المستقاة من الإثنوغرافيا والتاريخ معاً . وإذا كان « المتوحشون » يعيدون اليوم أمامنا حياة الماضى ونجد عن قبائل الأروكوا Iroquois بعض العادات فى اختيار رؤسائهم شبيهة بالعادات التى كانت متبعة عند قدماء اليونان فان ذلك مرده إلى أن الإنسان يتأثر فى طباعه بالمناخ وبنوع الحياة التى تسود فى البيئة التى يعيش فيها . فلا معنى إذاً لما انتشر فى ذلك الوقت من « الروايات » عن حالة الطبيعة . فحالة التحضر وكذلك حالة التوحش حالتان من حالات الطبيعة ويجب علينا إذا كنا نريد أن نتوخى الحكمة أن نعدل نهائياً عن محاولة الوصـــول إلى الأصول الأولى للإنسانية فليس لدينا من المعلومات الأكيـــدة ما يسمح لنا بمثل هذا البحث . وليس أمامنا إلا أن نتصور هذه الأصول حين نلاحظ معيشة المتوحشين فى أيامنا هذه . هذا هو مبدأ الدراسة الوضعية الحقة . وقد برزت هذه الفكرة كما قدمنا عند دى بروس . فلأجل أن نجمع أشتات تاريخ المجتمع ونميز بين أنواع المجتمعات يجب أن نلاحظ وأن نتأمل ومعنى ذلك « أن نجمع الحقائق بدلا من أن نصور الاحتمالات والظنون » . هذا العمل المجيد قام به فرجسون فى مؤلفاته . وقد كان الناس قبل دى بروس وفرجسون يتحسسون الطريق إلى هذه الحقائق ولكن بفضلهم استطاع العلم أن يجنى منها فائدة عملية . فأدمج الوصف فى المقارنة واستخدمت المقارنة للوصول إلى تفسيرات الظواهر الاجتماعية .

الفصل السابع

تاريخ علم الاجتماع

ثانياً : مرحلة التأسيس

فى القرن التاسع عشر تم تأسيس العلم الذى مهدت له محاولات القرون الثلاثة السابقة على ذلك القرن . إذ أحرزت الدراسات الأثنوجرافية والتاريخية فى ذلك القرن تقدما كبيرا . وثبتت فى الأذهان فكرة أن الجماعات الإنسانية تتوزع فى نماذج وأنواع واضحة المعالم . ثم تأكدت بعد ذلك فكرة أخرى وهى أن المجتمعات ذات طبيعة ذاتية وأننا نستطيع تصنيفها كما نفعل بالنسبة لأنواع النباتات وأنواع الحيوانات ما دامت المجتمعات تتشابه أو تختلف فيما بينها بحسب الزمان والمكان : كل ذلك يدفعنا حتما إلى أنواع من المقارنة بحيث نستطيع الوصول فى النهاية إلى تفسير الظواهر الاجتماعية . تحدد هذا المنهج تماما التحديد فى خلال القرن التاسع عشر وبرز فى المقام الأول وكان ذلك بدء تاسيس علم الاجتماع الحقيقى .

ويمكن إرجاع السبب الحقيقى فى تقدم ذلك العلم إلى تقدم دراسات « علم الحياة La Biologie » . ففى القرن الثامن عشر اصطبغت دراسة الظواهر الطبيعية نهائياً بالصبغة العلمية (١) واختفت التأويلات التخمينية

---

(١) أنظر كتاب مورنيه .

D. Mornet, Les sciences de la nature au XVIIIe siecle, 1913.

والعملية أمام منهج الملاحظة والتصنيف والتفسير العلمى. وأصبحت «قوانين» الطبيعة ذات معنى تحقيقى : فهى العلاقات التى توضحها لنا المقارنة فيما يتصل بظواهر المادة وظواهر الحياة . وقد كان لتقدم ذلك المنهج تأثير كبير على علم الاجتماع وساعد على ذلك الفكرة التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت وهى أن المجتمعات أجسام شبيهة بالأجسام الحية . وقد أطلق على تلك النظرية كما نعرف إسم « النظرية العضوية L'organicisme » . ونستطيع أن نعثر على آثار لتلك الفكرة (أى فكرة تشبيه المجتمع بالكائن الحى) مبعثرة هنا وهناك فى مخلفات العصور القديمة وعلى الأخص منذ أواخر العصر الوسيط حتى جاء الوقت الذى أصبح فيه من البداهة أن يشير المرء إلى التشابه بين المجتمعات والأفراد فى نموها واضمحلالها . وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح فى كتابات ابن خلدون وفى كتابات مكيافيللى بعده بقرنين من الزمان . فهو يعالج فى « حكاياته الفلورنسية » Histoires florentines شئون المدينة كما لو كانت كائناً حياً ويصور تقدمها على نمط تقدم الإنسان . وجاء بودان وبوترو ومونتنى . ثم بيكون وهوبز وبتى ولوك . ثم تورجو ومابلى وروسو وكوندورسيه . وأخيراً فرجسون وجميعهم طاب لهم أن أن يعقدوا تلك المقارنة بين المجتمع والكائن الحى . وقد أصبحت تلك الفكرة بعد ذلك من التفاهة بحيث نقدها سبستيان مرسييه Sébastien Mercier على أنها « حقيقة مضللة » . وهكذا نرى أن الفكرة أصبحت عامة بأن الهيئات الاجتماعية كائنات حقيقية تسير حسب قوانين أو على الأصح تخضع لعلل ثابتة .

وقد تمت فى أولى مراحل تأسيس علم الاجتماع مقارنة الظواهر . ثم جاءت بعد ذلك مرحلة الإيقان بوجود الأسباب وتبلورت فى المرحلة الأخيرة فكرة توضيح تلك الأسباب . هذه هى المراحل الثلاثة فى تأسيس

علم الاجتماع وهى وإن اختلطت فى كثير من الأحيان إلا أننا توخياً للوضوح سنتكلم عن كل منها على حدة .

١ – مقـــارنة الظواهر

عند ما كان رينان Renan فى حلقة الدروس الدينية حوالى سنة ١٨٤٠ أراد أن يكون لنفسه صورة واضحة عن الأزمنة القديمة التى ورد ذكرها فى الإنجيل . ففكر تواً فى أنه يستطيع الوصول إلى ذلك إذا درس حياة المتوحشين فى عصرنا الحديث . فانكب لهذا الغرض على دراسة النشرات والملاحظات التى كتبها الآباء المبشرون وجمعت تحت عنوان : Annales de la propagation de la foi . ومنها أخذ نظريته بأن الإنسان حيوان دينى . فى هذا العصر تقريباً بدأت الدراسات المقـــارنة تنتعش وتتقدم بخطى ثابتـــة .

وكان عدد الرحالة قد أخذ يتزايد يوماً عن يوم ومعظمهم ممن عنوا بالملاحظة ووضعوا الدراسة هدفاً أساسياً لهم واستعدوا لأداء ذلك الواجب تمام الاستعداد . وقد ساهم فى هذه الحركة مساهمة فعالة التجار والمغامرون والموظفون الدبلوماسيون ورجال الإرساليات الدينيـــة . وازداد عدد الأوربيين فى البلاد النائية حين تضاعفت حركة الاستعمار . على أن الجديد حقاً فى هذا الشأن هو تنظيم « البعثات للدراســـات البشرية » . وقد قامت بمجهودات حقيقية فى سبيل البحث العلمى . وقد كان المثال الأول لهذه البعثات فى بدء ذلك القرن ، بعثة العلماء الذين أحضرهم معـــه نابليون بونابرت فى حملته على مصر فجمعوا خلاصة أبحاثهم فى مؤلف ضخم بعنوان «وصف مصر»

وكان ذلك المولف أول مجهود لمحاولات الكشف العلمى بعد الإعداد والتصميم . وهو مؤلف توافر على كتابته علماء مختصون وأعدت مادته بناء على مجموعات من الأسئلة الدقيقة questionnaire (١) وقد طبع بعد ذلك على نفس النمط كتاب « كشف الجزائر L'exploration de l'Algérie . وأنشئت مؤسسات عامة للقيام بمثل هذه الأبحاث . وأهمها مكتب أبحاث الأجناس البشرية فى واشنطن Bureau d'ethnologie الذى أسس فى سنة ١٨٧٩ . وأنشىء منذ زمن ليس ببعيد فى باريس معهد للدراسات البشرية Institut d'Ethonologie . وهكذا بفضل اتحاد هذه الجهود جميعاً استمر العمل فى كشف العالم البشرى على سطح هذه المعمورة وذلك بحسب ما سمحت به ظروف الفتح واستعمار البلاد الجديدة . ولا نستطيع فى هذه العجالة إلا أن نذكر الخطوات الهامة التى تمت فى كل ميدان وأن نشير إلى المؤلفات والوثائق التى لعبت الدور الهام فى المقارنات والتفسيرات .

ويجب ألا ننسى أن ذلك الكشف قد تم فى وقت واحد فى جميع أجزاء العالم .

وأول الجهات التى خضعت للبحث العلمى هى منطقة الأرخبيل وجزر

---

(١) العنوان الكامل لهذا المؤلف هو :

Description de l'Egypte, ou recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Egypte.

وقد ظهرت الطبعة الأولى فى تسع مجلدات من الحجم الكبير مصحوبة بلوحات مصورة من ١٨٠٩ — ١٨١٣ . أما الطبعة الثانية فقد كانت فى ٢٤ مجلدا من القطع الثمانى مصحوبة بلوحات من الحجم الكبير (١٨٢١ — ١٨٢٩) وقد قام Baring بعمل جداول تحليلية لهذا المؤلف الضخم فى ١٨٣٨ وقام أيضا بنفس العمل إتين كورب فى ١٩١٧ . أنظر على الخصوص فى المجلد الثامن عشر : دراسة عادات السكان فى مصر الحديثة وهى مكتوبة بقلم دى شابرول De chabrol .

المحيط الهادى . وقد ظهرت فى وقت مبكر وثائق هامة عن تلك الجهات نذكر منها : «أبحاث فى بولينيزيا» Polynesian Researches للعلامة إيليس Ellis (١٨٢٥) ، « والميثولوجيا البولينيزية» Polinisian Mythology للعلامة جراى Grey (١٨٥٥) . واهتم العلماء بعد ذلك بوصف حضارات سكان استراليا فكتب فيزون وهويت عن قبائل « الكاميلاروى والكورناى » Kamilaroi & kurnai « (١٨٨٠) . وظهرت بعد ذلك الوثائق التى كتبها العالمان سبنسر وجيلين ووثائق البعثة التى أرسلت إلى مضيق توريز وقد استغلت هذه الوثائق أحسن استغلال وعقب عليها المعقبون وكنا يعرف المكان الهام الذى احتلته الدراسات الخاصة باستراليا فى علم الاجتماع ، وخصوصاً فيما يتعلق بمسائل القرابة ومعنى العشيرة clan والقبيلة Tribu وفكرة « الطوطم » le totem .

وجاء بعد ذلك دور التوغل فى مجاهل أفريقيا . وقد زودنا استعمار الجزائر ثم المناطق الاستوائية بكثير من المعلومات والوثائق الجديدة . فتوافر على دراسة قبائل البربر فى الجزائر هانوتو Hanoteau ولتورنو Letourneux (١٨٦٦) ثم تبعهم فى ذلك العلامة ماسكيرى Masqueray وهو النموذج الكامل للعالم المدقق الذى يستغل مواهبه فى الملاحظة والمقارنة . وأخذت حركة وصف الشعوب تتقدم شيئاً فشيئاً فى جميع أنحاء أفريقيا . وتقدم علماء أمثال : إيليس ، ودينت Dennet ، وراترای Rattray ، ودوفريه Duveyrier ، وفورو Foureau ، ودلافوس Delafosse بغذاء وافر للعقول المتشوقة إلى حب الاستطلاع .

أما مناطق أمريكا وآسيا فلم يتم كشفها العلمى إلا بعد ذلك بمدة طويلة . ومع ذلك فمنذ سنة ١٨٨٠ أصبحت هذه المناطق أعظم مراكز البحث العلمى الخصب . فقام فيها علماء من أمثال دورسى Dorsey ، وكشينج Cushing ،

وبوس Boas بأبحاث عظيمة للغاية استفاد منها واستخدمها من جاء بعدهم من العلماء. وما زالت هناك موضوعات كثيرة لم تبحث بعد. ولكن بالرغم من ذلك فان العالم لم يشهد من قبل مثل هذه الحركة النشطة التى تجمع فيها فى أقل من قرن واحد كنز ثمين من الأبحاث والوثائق العلمية.

وقد استخدمت هذه الأبحاث والوثائق فى كتابة مجموعات شاملة للدراسة الاجتماعية. فأصدر فايتز waitz مؤلفا ضخما فى ستة أجزاء بعنوان « دراسة بشرية لطبيعة الشعوب » Anthropologie des Naturvölker (١٨٥٩-١٨٧٢) وأصدر لاثام Latham كتابا بعنوان: « الأثنولوجيا الوصفية » Descriptive Ethnology (١٨٥٩). وأحس سبنسر بضرورة إصدار كتاب يلم شعث الدراسات المبعثرة فنشر كتابه «علم الاجتماع الوصفى Descriptive Sociology (١٨٧٣ - ١٨١٠) فى ثمانى مجلدات من الحجم الكبير. وقد احتوى هذا المؤلف الضخم على أهم العناصر التى استخدمها الكاتب فيما بعد فى كتابه « مبادىء علم الاجتماع ». وقد كان أهم عمل قامت به المدرسة الإنجليزية للدراسات البشرية هو جمع الوثائق والمعلومات. ومن أهم هذه المجموعات المؤلف المشهور « الغصن الذهبي The Golden Bough » الذى كتبه السير جيمس فريزر وهو مجموعة ضخمة للمعتقدات والعادات عند الشعوب البدائية استفاد منها من كتبوا فى هذه الموضوعات فيما بعد. وقد احتوى هذا الكتاب أول ما ظهر فى سنة ١٨٩٠ على جزأين ولكنه الآن يتألف من اثنى عشر مجلدا (١). وكان أدولف بستيان أيضا من أعظم الرحالة الذين عنوا باصدار المجموعات العلمية (٢). وجاء بعده راتزل

---

(١) أنظر الطبعة الفرنسية المختصرة بعنوان :
Le Rameau d'or, in-4o., 1924.

(٢) أنظر مختصرا لكتاباته فى مجلة :
Revue Philosophique, XIII, P. 544-550, 1882.

Ratzel فنشر مؤلفه بعنوان « الأجناس البشرية Volkerkunde » فى ثلاثة مجلدات (١٨٨٦) . وقدظل هذا الكتاب موسوعة عامة لايستطيع أحد أن يستغنى عنها حتى ظهر أخيرا كتاب ج . بوشان Buschan » . (١) واتسع أفق البحث بعد ذلك إلى ما لا نهاية وبعد بالناس العهد الذى كانوا يفغرون فيه أفواههم دهشة عند محاولة تيلور Taylor سنة ١٨٧٥ التقريب بين الفن الصناعى عند سكان تسمانيا وعند قبائل ما قبل التاريخ فى العصر الشيلى . وهكذا نستطيع الآن أن نؤكد أن علم الأجناس البشرية قد استطاع أن يوضح التاريخ ويضىء جوانبه المظلمة .

لم تكن هذه الدراسات ذات الطابع العام إلا اتصالا وإتماما للعمل الذى بدأ منذ أزمنة بعيدة . على أن هناك ما يتميز به القرن التاسع عشر بصفة خاصة ففيه عم استخدام المنهج المقارن فى دراسات محددة . واستخدم الإخصائيون هذا المنهج الذى ثبتت صلاحيته فى الكشف عن ظواهر بالذات : وعلى الأخص فى دراسة القانون والديانات .

أما دراسة القانون المقارن فقدكان مركزها الرئيسى فى ألمانيا ثم فى فرنسا (٢) . وقد ظل الناس مدة طويلة يرجعون إلى القانون الرومانى وتفسيراتهم ولم يستطيعوا الخروج عنه حين رسموا لأنفسهم صورة عن القوانين التى سميت بالبدائية .

---

(١) أنظر المراجع العامة فى نهاية الكتاب .

(٢) أنظر :

F. Pollock, *The history of Comparative Jurisprudence*, Journal of the Society of Comparative Legislation, new Series V, 1903; et H. Hayem, *L'Etude du droit comparé*, Revue trimestr. de droit civil, 1909.

وكان سافيني Savigny نفسه يأنف من الرجوع إلى نتائج الإثنوغرافيا فى مقارناته . وظل الطابع الرومانى ماثلا بوضوح حتى فى اختيار الأسماء التى أطلقت على بعض النظم البدائية . فاحتفظ سمنرمين Sumner Maine ، ومورجان ، ودوركيم بكلمات مثل « القبيلة tribu » والأسرة الأبوية «gens» مثلما احتفظوا بالكلمة اليونانية phratrie (ويقصد بها اتحاد العشائر) . ولكنهم استخدموا هذه الكلمات فى معان أوسع نطاقا من معانيها الأصلية

على أن الأمر لم يلبث أن تحول بسرعة وأقبل العلماء على دراسة النظم والتشريعات عند الشعوب البدائية دراسة مباشرة دون أن يتوقفوا لذلك عن دراسة القوانين من الناحية التاريخية . وقد أدت هذه الدراسة إلى الكشف عن مجموعات قديمة للقوانين مثل مجموعة حورابى ملك بابل (١٩٠٣) . ثم نهت دراسات جريم Grimm العلامة ميشليه Michelet فأصدر فى سنة ١٨٣٧ كتابه عن « أصول القانون الفرنسى مستقاة من رموز وصيغ القانون العالمى Origines du droit français cherchées dans les symboles et formules du drois universel : وقد كان هذا البحث من الأبحاث الطريفة حقا فى القانون المقارن وأخذت فيه دراسة التشريعات الهندية نصيباً كبيراً . وظهر فى فرنسا ليرمينيه Lerminier ولابوليه Laboulaye ، وداريست Dareste ، وفى انجلترا سمنرمين ، وماك لينان ، وفى أمريكا مورجان ، وفى سويسرا باخوفين Bachofen وهؤلاء جميعا وضعوا أسس الدراسة المقارنة لنظام القرابة وحقوق الأسرة(١)

---

(١) أنظر :

Sumner Maine, *Ancient Law*, 1861; Mac Lenan, *Primitive Marriage* 1865; Lewis Morgan, *Ancient Society*, 1877; Bachofen, *Das Mutterrecht* 1861.

وقاموا بدراسات مستفيضة عن النظام الذى تسود فيه سلطة الأم matriarcat وعن نظام العشيرة clan والقبيلة . أما فى ألمانيا فقد عنى يهرنج Jhering وبوست Post ، وكوهلر Kohler بوضع بيانات منسقة ظهرت فضل الدراسات البشرية (الإثنوغرافيا) على الدراسات التاريخية للقانون .

ومن ناحية أخرى تقدمت الدراسات المقارنة للأديان بخطوات لا تقل فى سرعتها عن تقدم الدراسات القانونية (١) . ففى نفس الوقت الذى ظهر فيه كتاب بنيامين كونستان Benjamin Constant القيم « عن الدين » كان أوتفريد مولر يواصل جهوده لتأسيس علم الأديان المقارن (٢) . فأكد أن العقائد والأساطير من ابتداع الفكر الشعبى وأنه لذلك يمكن تفسيرها فى ضوء المناخ والوسط اللذين يطبعان هذا الفكر بطابعهما . وهكذا شرع فى تفسير هذه العقائد على أسس ومبادىء تحقيقية . وجاء بعده ماكس مولر ، وروبرتسون سميث ، وفريزر فجمعوا كثيراً من المعلومات تمهيداً لبحثها وتفسيرها . ومن الغريب حقا أن يكون الفضل فى معظم النتائج والتفسيرات التى وصل اليها علم الاجتماع فى العصر الحديث راجعاً فى أغلب الأمر إلى مؤرخى الأديان .

---

(١) أنظر هاردى : « بحث فى التاريخ المقارن للديانات »

Hardy, *Zur Geschichte der Vergleichenden Religionsforschung*, Archiv fur Religion swissenschaft, 1901.

وأنظر أيضا :

Pinard de la Boullay, *L'Etude Comparée des Religions*, 1922.

(٢) أنظر كتابه : « مقدمة فى علم دراسة الاساطير .

Prolegomena zu einer Wissenschaftlichen Mythologie, 1825.

وقد كتب ريفيل Réville تحليلا مسهبا لهذا الكتاب فى مجلة تاريخ الأديان .

Revue de l'histoire des religions, 1884.

عندما تجمعت هذه الوثائق فى أيدى علماء الاجتماع تقدموا غير هيابين نحو تفسير الظواهر الاجتماعية وشجعهم على ذلك ما شاهدوه من تقدم العلوم الطبيعية . ولكنهم اقتصروا فى بادىء الأمر على التأكد من وجود الأسباب قبل محاولة بحثها وبيان حقيقتها . فما لا شك فيه أن الإيقان بوجود الأسباب لا بد أن يسبق تبيانها .

٢ - الإيقان بوجود الأسباب

اهتم علماء الاجتماع فى بادىء الأمر باعلان حقيقة هامة وتأكيدها وتثبيتها فى الأذهان : هذه الحقيقة هى أن الظواهر الاجتماعية تخضع لأسباب محددة . ولكنهم وقفوا مدة طويلة عند هذا الحد دون أن يحاولوا أن يتجاوزوه إلى البحث عن هذه « العوامل المسيطرة على ظواهر المجتمع » وتقريرها . وقد رأينا من قبل كيف واصل روبرتسون وفرجسون جهود منتسكيو وزادوا عليها وقد كانت آراؤهم حاسمة فى هذا الصدد وخاصة فيما قرروه من الصلة بين « عادات الناس وأمزجتهم » وبين « الحالات المختلفة لغريزة التجمع » . وقد أصبحت بعد ذلك فكرة الضرورة التى تسيطر على الظواهر الاجتماعية محور أساسياً وعاملا فعالا تدور حوله جميع الأبحاث الاجتماعية . ولم تكن فكرة « القوانين » عند منتسكيو على ما يظهر إلا تأكيداً لعلاقات حسن الجوار وتحكيم العقل وأصول العدالة التى يجب أو يتعين أن تسود بين الناس . أما « الماليون » الذين ذاعت آراؤهم منذ سنة ١٨٠٠ وجاء من بعدهم سان سيمون وأوجست كومت فقد كانت فكرة القوانين لديهم تحدد علاقة التبعية والصلة الوثيقة بين النتائج وأسبابها .

ويلوح أن هذه الفكرة قد انتشرت فى فرنسا منذ أواخر القرن الثامن

عشر على أيدى هؤلاء « المثـــاليين » فقد كان هؤلاء إلى جانب تمسكهم وتشددهم فى الخضوع لقوانين العقل يولون الملاحظة عناية كبرى . وقام أحدهم ، ويدعى دى جيراندو بوضع قائمة من الأسئلة questionnaire لدراسة أحوال القبائل المتوحشة . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام فولنى Volney (١) وكابانى cabanis . وقد كان فولنى مؤرخا وعالماً لغوياً كما كان مولعاً بالأسفار فجاب بلاد الشرق وقام بزيارة إلى جزيرة كورسيكا وعاش مدة فى العالم الجديد وهناك قام بوضع كتاب عن الألفاظ المستعملة فى لغـــة الهنود الحمر .

وكان عند ملاحظته لهؤلاء الهنود يفكر فى قدماء اليونان كما وصفهم تيوسيديد كما كان الفكر يذهب به أيضا إلى قبائل البدو وسكان كورسيكا وقد كان من أوائل من سبقوا إلى دراسة أحوالهم . فعقد المقارنات بين هذه الشعوب ولاحظ أوجه الشبه كما عنى على الخصوص بتوضيح أوجه الاختلاف التى ترجع فى نظره بصفة خاصة إلى اختلاف البيئة وطبيعة الأرض . فدل بذلك على نظرته الفاحصة وإلمامه التام بأبسط الأشكال للحياة فى المجتمع . وقد ذهب على وجه الخصوص إلى أن التشابه بين هذه الشعوب قد يكون نتيجة « للتشابه الناتج عن تأثيرات المناخ والتربة والأغذية والعادات » . وعلى الجملة فقد عرف كيف يستخلص الدرس المفيـــد من ملاحظاته حين قرر أن الإنسان يخضع فى تصرفاته لعوامل مسببة .

ثم قام جان بابتسيت ساى وسان سيمون فى ذلك الوقت نفسه بتحديد فكرة وجود الأسباب الاجتماعية تحديداً واضحا قوياً .

أما « ساى » فقد كان هو نفسه « مثاليا » وكان كما بينا من قبل أحد أتباع آدم سميث وبالتالى أحد أنصار المدرسة الاسكوتلندية وهى المصدر

---

(١) اقرأ فى مؤلفاته .

Observations générales sur les Indiens ou sauvages de l'Amérique-Nord (1795), édition Didot, 1846.

الحقيقى لما ذاع فى ذلك الوقت من أفكار علميـــة حول دراسة الأخلاق والمجتمع . وقد كتب فى سنة ١٨٠٣ موسوعة فى الاقتصاد السياسى عرض فى مقدمتها للطبيعة التجريبية للعلوم الأخلاقية . وكانت كلمة « تجريبيـــة » هذه فاتحة عهد جديد فى دراســـة هذا النوع من العلوم . فمن المعروف أن « العلم يقوم بأكمله على الحقائق اليقينية » ولا ســـبيل لنا لمعرفة هذه الحقائق إلا عن طريق « معرفتنا للصلات التى تجمع بينها » . ولم لا تكون دراستنا للعلوم الاقتصـــادية شبيهة بدراستنا للكيمياء أو علم وظائف الأعضاء؟ (١). وهكذا تم لعلم الاجتماع حقا أن يضع قواعد، ويعلنها للملأ. على أن « ساى » شأنه فى ذلك شأن سان سيمون لم يحاول مطلقاً أن يطبق هذه القواعد ولم يشرع كما فعل سميث فى الميام بدراسة مقارنة للمجتمعات تؤدى إلى الكشف عن أسباب الأحـــداث التى تحدث فيها . ولكنه اقتصر على المناداة بوجود هذه الأسباب ولم يفعل سوى أن أكد الصلة الوثيقة بين النتائج وأسبابها وهى أساس المنهج المقارن (٢) . وكان يعتقد أن الضرورات

---

(١) أنظر كتاب ساى فى الاقتصاد السياسى .

Traité d'économie politique 1803.

وفى هذا الكتاب يسمى المجتمعات « أجساما حية » ويسمى الاقتصاد السياسى « فسيولوجيا المجتمعات »

(٢) أنظر كتابه الصغير عن ملاحظاته عن أحوال الناس والمجتمع :

Petit Volume contenant quelques apperçus (sic) des hommes et de la Société, in-32o., 1817.

(فى هذا الكتاب يذكر أن الوشم عند متوحشى بحار الجنوب وإرسال الشارب عند متوحشى أوربا يعبران عن معنى واحد)

والمبادىء الجبرية التى تخضع لها الحياة داخل نطاق المجتمع بسيطة لا تعقيد فيها ونظر اليها على أنها قوانين لا سبيل للطعن فيها .

أما سان سيمون الذى اشتهر بالنزعة الإصلاحية فقد كان يشعر فى بعض الأوقات شعوراً قوياً بوجود أسباب وقوانين تسيطر على الجماعات الإنسانية . وكان يعتنق فكرة تأسيس علم لدراسة المجتمع . ولكنه سرعان ما تحول عن هذا المبدأ حيث وجـــد أنه لا يتفق مع آماله وطموحه . ودفعت به عاطفته القوية إلى أن « يعيش فى المستقبل » بدلا من أن يدرس الحاضر . ولم يكن أكثر من جان بابتيست ساى اهتماما بتحقيق هذه الفكرة الخصبة ـ أى فكرة تأسيس علم للظواهر الاجتماعية ـ تلك الفكرة التى لا يغذيها إلا الملاحظة الدقيقة والدراسة المستمرة لأحوال الناس وعاداتهم . وانتهت أبحاث سان سيمون إلى نوع من التصـــوف : وظن فى نفسه أنه المسيح المنتظر (١) . وإن يكن ـ كما قلنـــا ـ قد طالب فى كتاباته الأولى وصاغ فى عبارات قوية رغبته فى تأسيس علم الاجتماع .

فمنذ سنة ١٨٠٢ أو ١٨٠٣ كتب فى « خطاباته من جنيف » بأنه يجب أن «ننظر إلى العلاقات الاجتماعيـــة كما ننظر إلى الظواهر الفسيولوجية » ويجب بناء على ذلك أن نطبق على دراسة هذه العلاقات الوسائل العلمية المتبعة فى العلوم الطبيعية . وتلك تماما هى قاعدة وأساس الدراسة التحقيقية فالمجتمعات إنما هى حقائق خارجية فيجب إذن أن تسير هذه الحقائق وفق قوانين ثابتة . وقد كتب سان سيمون بعد ذلك أن المجتمع « كائن عظيم » . ولكن هل هذه الفكرة وليدة عقله ؟ أو أوجدها ـ كما قال البعض ـ عن

---

(١) أنظر :

Dumas: *L'Etat mental de Saint-Simon*, Revue Philos., 1902.

طريق الحدس ؟ نحن لا نعتقد ذلك فقد كانت معلوماته سطحيـــة ولم يكن لديه الفراغ الكافى للقراءة . ولا نستطيع بأى حال أن نقارن ثقـــافة سان سيمون بتضلع وعمق عالم مثل منتسكيو أو فرجسون أو آدم سميث . ومن المظنون أن سان سيمون كان يختلف قبل أن تظهر كتاباته هذه بعدة سنوات إلى حلقات واجتماعات جماعة « المثاليين » وهنـــاك عثر على فكرته هذه وأذاعها فى كتاباته . وكانت هذه الفكرة « فى الجو » حوالى سنة ١٨٠٠ . وقد بينت فيما سبق كيف أصبح من البـــداهة بعد ذلك تشبيه المجتمعات بالكائنات الحية (١) . وكان من الطبيعى أن تكون نتيجـــة هذا التشبيه المناداة بتطبيق المنهج المتبع فى دراسة علم الحيـــاة على دراسة المجتمعات . أو لم يكتب كابانى منذ سنة ١٧٩٦ أن العلاقات الخلقية « بالنسبة لعالم الأخلاق كظواهر الحياة الطبيعيـــة بالنسبة للطبيب ؟ » وأنه حينئذ يمكن أن نتعرف على الحالات الخلقية المختلفة عن « طريق الملاحظة » وأننا إذا فعلنا ذلك فسوف تدخل الدراسات الإنسانية فى حظيرة الدراسات الطبيعية وتصبح فرعاً من التاريخ الطبيعى للإنسان » . وقد استخلص كابانى من ذلك النتيجة الحتمية وهى أن « فن إجراء الملاحظات ومحـــاولة التجارب واستخلاص النتائج اليقينيـــة منها يجب ألا يختلف بالنسبة للعلوم الإنسانية عن الوسائل التى يجرى بها العمل كل يوم فى العلوم التجريبية » (٢) . ويجب

---

(١) أنظر كتاب المؤلف .

La Sociologie chez les économistes, Revue du mois, 1911.

(٢) أنظر ما كتبه كابانى عن العلاقة بين الناحيه العضوية والناحية الخلقية عند الانسان

Rapports du physique et du moral de l'homme, 1843.

وقد عرض بيشا Bichat في نفس الوقت إلى الفكرة المضادة أى الى تأثير الظاهرة الاجتماعيـــة على الصفات العضوية . أنظر مؤلفه :

Recherches physiologiques sur la vie et la mort, in-8o., 1ère. partie, P. 130, sequ., 1802.

وهكذا نرى سريان الفـكرة فى محاولة ربط الاجتماع بالبيولوجيا .

أن ننوه هنا أن هذه المذكرات ، بعد أن قرئت فى المجمع العلمى ، ظهرت فى مؤلف فى سنة ١٨٠٢ بالذات . وبعد مضى فترة وجيزة من الزمن نجد سان سيمون يردد نفس المعانى دون أن يزيد عليها وضوحا أو تأكيداً. فلم يكن ما جاء به إلا صدى رددته أصداء أخرى نذكر منها : دى مايستر وبونالد وبلانش وقد عبروا جميعا عن الفكرة نفسها . ولم يكونوا خيراً من سان سيمون حين لم يتورعوا من تقرير مبدئهم العلمى ثم تركوه وراءهم ظهرياً وساروا وراء أوهامهم وأحلامهم . ولم تكن فكرة العلم لدى سان سيمون وايهم إلا فكرة عابرة تمر بأذهانهم فى فترات متقطعة ولنكرر مرة أخرى أن فولنى وكابانى هما اللذان وضعا فى فرنسا ـ قبل سان سيمون وخيراً منه ـ أسس علم الاجتماع وذلك تحت تأثير تقدم العلوم الطبيعية . ونحن لا ننكر أن سان سيمون كانت له نظرة خاصة فى التاريخ استشف من ورائها فكرة الضرورة والحتمية . ونراه حين يعرض برنامج موسوعته الجديدة فى سنة ١٨١٠ يتكلم عن فكرة الحتمية فى تقدم الإنسان ولكن أليست هذ هى الفكرة التى عالجها فيكو Vico وهردر Herder من قبله ؟ ومع ذلك فنحن لا نغمط سان سيمون حقه ونرى أنه بحق أحد بناة فلسفة التاريخ حين أذاع نظريته المشهورة عن تطور المجتمع حسب فترات عضوية périodes organiques وفترات حرجة périodes critiques (١) وحين نظر إلى الديانات نظرة شاملة وقرر مبدأ تطورها من الفكرة الخرافية fétichisme إلى فكرة تعدد الآلهة polythéisme ثم إلى فكرة الإله الواحد monothéism وهى آخر ما استقر عليه تطور الدين . وكذلك

---

(١) يمر المجتمع فى تطوره بفترة استقرار وهدوء وهى ما عبر عنه سان سيمون « بالعضوية » تليها فترة نزوع وتوثب نحو حالة جديدة وهى ما عبر عنها « بالحرجة » وهكذا على التوالى .

المترجم

حين قرر مبدأ التقدم بوجه عام من النموذج الإقطاعى type féodal إلى النموذج الصناعى type industriel . كل هذه ولا شك آراء ونظرات خصبة ولكنها لسعتها وعموميتهـــا تتعدى نطاق العلم (١) . وقد كان شأن الفيلسوف سان سيمون شـــأن فيكو : كل منهمـا يطمئن إلى ما يقدمه من مبادىء وآراء ولا يهتم بتاتا بأن يقيم هذه الآراء على أسس من مقارنة الظواهر . ألم يقل سان سيمون أن الأبحاث حول تاريخ الهنود والصينيين لا تستحق « أن تشغل الأذهان الناضجـــة » لأنها أبحاث تتصل بشعوب « ما زالت فى دور الطفولة ؟ » ولذلك فهو يشيح بوجهه عن هذه الأبحاث ويهملها كما أهمل كل ما يتعلق بالعصور القديمة قبل عصر سقراط . وهو يتحدى التاريخ نفسه حين يجد أن التاريخ يعرقل مبادىءه . ومهما يكن من من طرافة آرائه حول التقدم وتأثيرها فى النفوس فانها ستظل دائما ثمرة للحدس والأخيلة الوهمية .

وما قلناه عن سان سيمون ينطبق فى مجموعه على أوجست كومت فقد تأثر هذا الأخير كثيرا بآراء الأول وتعاليمه (٢) بدأ أوجست كومت بداية طيبة سجل

---

(١) العلم يبحث الجزئيات ويقرر حقيقتها قبل أن يصل إلى التعميم ولـكننا نرى أن سان سيمون كان يقفز رأسا الى النظريات العامة دون أن يقيمها على أساس ثابت من الاستقراء العلمى . (المترجم)

(٢) أهم مؤلفات أوجست كومت هى :

Cours de philosophie positive, 6 vol., in-8o., 1830-1842. Et Système de politique positive, 4 Vol., in-8o., 1851-1854.

ومن المؤلفات التى كتبت عن أوجست كومت إقرأ :

Lévy-Bruhl, *La philosophie d'Auguste Comte*, in-8o., 1900; Faguet, *Politiques et moralistes du XIXe. siècle*, II, P. 281-369; Delbos, *La philosophie française*, in-16o., 1919.

وهناك أيضا دراسة تحليلية قيمة بقلم بلانشار فى مجلة علم النفس .

P. Blanchard, dans *American Journal of Psychology*, 1918.

فيها بقوة ووضوح أن المجتمع له قوانينه وأنه جزء من العالم الطبيعي ولذلك فان علم الاجتماع يجب أن ينظر اليه على أنه نوع من الطبيعة une physique

أما التاريخ فانه فى نظره يجب أن يكون « البحث عن القوانين التى تسيطر على التقدم الاجتماعى للنوع الإنسانى » . وقد حاول أن يتلمس الوسيلة لهذا البحث فقال : « إن جميع درجات الحضارة التى مرت بها الإنسانية موجودة الآن على سطح الكرة الأرضية ابتداء من الدرجة الدنيا عند متوحشى نيوزيلندة حتى الدرجة العظمى التى تتمثل فى حضارة الشعوب الأوربية الحديثة كالفرنسيين والإنجليز . وعلى ذلك فاننا نستطيع أن نصل الى التسلسل الزمنى عن طريق عقدنا للمقارنات المكانية (١) »

لم يصل أحد من قبل إلى أن يقول خيراً من هذا الكلام الذى يرسم الخطة بوضوح أمام العالم الاجتماعى والحقيقة أن هذا البرنامج كان أحوج ما يكون لمن ينفذه . ولكن أوجست كومت للأسف كان شديد اللهفة نحو « إعادة اصلاح المجتمع » . فلم تدم نزعته العلمية الصرفة أكثر من وميض البرق وكذلك كان الحال عند صديقه سان سيمون . واتجه بفكره تواً نحو الناحية العملية . وكان يصادف فى طريقه من آن لآخر بعض الحقائق فيسجلها . مثال ذلك ما سجله عن الأصل الدينى للنظم الأخلاقية والقانونية . ولكنه - مثل زميله سان سيمون أيضاً - سرعان ما طرح وراءه تلك الطريقة المقارنة التى لاحت له فى أفق العلم وآمن بفائدتها وذلك حين وجد أن تلك الطريقة تعرقل ما يقوم به من مشروعات وتنبؤات للإصلاح . وأعلن بعد ذلك أنه سوف لا يهتم فى أبحاثه إلا « بالجانب الأعظم من الجنس الأبيض » حيث يستطيع تطبيق قوانينه وبخاصة

---

(١) *Système de politique positive*, 1re. éd, p. 186-188, 1824.

قانون الحالات الثلاثة . وهو لا يهمه كمصلح يعرف كيف يؤدى واجبه إلا دراسة العوامل التى وصلت بمجتمعاتنا الحديثة إلى حالتها الراهنة . وهو يستنتج فى بساطة أن تطور المجتمعات الأخرى لا بد قد توقف ما دامت هذه المجتمعات لم تساير « ركب التقدم » الذى رسم خطوطه (١) . وقد كانت هذه النظرة عودة إلى الوراء بالنسبة لما حققه باحثو القرن الثامن عشر . إذ كانت نظرة منتسكيو وفرجسون وآدم سميث أوسع وأعمق من ذلك بكثير . وكانت تحدوهم فى أبحاثهم الرغبة الحقة فى البحث والتعمق . أما أوجست كومت فان عظمته تنحصر فى مقدرته العقلية على التركيب la synthèse وعلى بناء النظريات . ولكن علم الاجتماع لم يجد فيه عاملا ينهض بشئونه . ومن الغريب أن نرى أن المؤرخين أنفسهم الذين عاشوا فى زمن كومت كانوا يحتقرون الدراسة المقارنة . فلم يكن سافينى savigny يؤمن بتاريخ القانون المقارن وكان يعتقد أن كل محاولة لعقد المقارنات خارج نطاق القوانين الرومانية والمتبربرة إنما هى محاولة عقيمة . ولذلك فان هذا العصر قد رجع كثيراً إلى الوراء . ولم تعد الدراسات المقارنة للانتعاش إلا على يد جريم وميشليه بصفة خاصة وذلك فى سنة ١٨٣٧ .

---

(١) Cours de philosophie positive, t. V, P. 1 seq.

يجب أن نعترف لإميل فاجيه الناقد الأدبى بما رآه حقا من أن فلسفة كومت التاريخية شأنها فى ذلك شأن فلسفة بوسويه « قد أغفلت عمدا النظر بعين الاعتبار إلى نصف أو ثلثى أجزاء العالم » . وقد كان كومت ينظر إلى المقارنة على أنها « مصدرا يؤدى إلى تعقيد الأمور والخلط بينها وذلك عند البحث عن القوانين الحقيقية للتجمع الانسانى ولم يكن كومت يميل إلى الدراسة الوثيدة المتابرة بل كان يتعجل الحصول على النتائج.

ولكن هناك مبدأ أصبح بعد ذلك مقررا : وهو أن المجتمعات حقائق تاريخية ترجع فى تطورها لأسباب يمكن للباحث أن يبحث عنها ويكشفها . لم يكن تأكيد هذا المبدأ عبثا : وقد قام الفلاسفة بكل تأكيد بالدور الأعظم فى هذه الخطوة . وأقام سبنسر فى إنجلترا وإسبيناس Espinas فى فرنسا الصرح الشامخ على هذا الأســـاس المكين الذى لا يقوم علم للمجتمع بدونه .

أما وقد أيقنا الآن بوجود أسباب للظواهر الاجتماعية فقد بقى علينا أن ننظر فى كيفية توضيحها .

٣ - بيان الأسبـاب

لنعد هنا خطوة إلى الوراء. فقد ذكرنا من قبل أن المراحل الثلاثة التى نتكلم عنها فى هذا الفصل تتشابك ويتداخل بعضها فى البعض الآخر .

حاول المفكرون منذ أزمنة بعيدة أن يفسروا بعض الظواهر الخاصة بأسبابها وأن يثبتوا أن هذه الظواهر تخضع لقانون الجبرية ولا تسير حسب الصدفة . ولم يهمل فلاسفة العصور القديمة أنفسهم هذه المحاولات . ألم يعدد أفلاطون فى الكتابين الرابع والخامس من مؤلفـــه عن « القوانين Les Lois » العناصر التى تتحكم فى الإنسان وهى : سطح المكان والموقع والتربة والماء والسماء؟ ثم ذكر بعد ذلك عوامل إنسانية كالتعليم والتقليد أيضا(١)

(١) أنظر مقال روبان .

Robin, Platon et la Science sociale, Revue de métaphysique et de morale, XXI, P. 211-255, 1913.

على أنه يجب ألا نغالى فى تقدير قيمة هذه العوامل عند أفلاطون إذ أنها تخضع جميعاً فى النهاية لقوة الأرواح والآلهة .

وأفضل من هذا ما نراه عند تيوسيديد المؤرخ فقد حاول أن يكتب التاريخ كتابة علميـــة وأن يوضح ويفسر أعمال الجماعات ولكن كل هذا يؤول فى النهاية إلى نوع مبسط من دراسة «سيكولوجية الشعوب» أما تأثير الأسباب المادية فقد ظل مجهولا مدة طويلة .

هذه الأسباب المادية هى أول ما اهتم بالبحث عنه العصر الحديث. وكان تأثير المناخ وطبيعة الأرض أسبق العوامل إلى أذهان المفكرين . وبحث العلماء واعتقدوا أنهم اهتدوا إلى العوامل المتحكمة فى الإنسان حين أظهروا درجة خضوع الجماعات الإنسانية لتأثيرات المكان والوسط الطبيعى .

واقتصرت المسألة فى بادىء الأمر على تسجيل بعض الملاحظات البسيطة فلم يخف على أذهان بعد القدماء تأثير المناخ وطبيعـــة الأرض . وعرض الكثير منهم لهذا الموضوع دون أن يقفوا طويلا لتـــأمله ودراسته (١) . واكتفوا بتسجيل هذا التأثير على المزاج الفردى أو الجمعى أو بتسجيل هذا التأثير على المزاج الفردى أو بتسجيل نتائجه على عادات الشعوب وأخلاقها ومن قبيل ذلك ما ارتآه الفيلسوف اليونانى لوسيان من تفسير حالة البداوة

---

(١) اقرأ فى هـذا الموضوع :

J. L. Heiberg, *Théories antiques sur l'influence morale du climat*, Scientia XIV, Juin 1920.

وانظر كذلك قائمة المراجع المذكورة فى رسالة لومبارد عن « الأب دوبوس »

Lombard, *L'abbé Dubos*, in-8o., 1913.

وهذه القائمة يمكن إضافة الكثير اليها .

بظروف المكان . وفسر الأفريقي مانيليوس في القرن الأول اختلاف صفات الشعوب باختلاف الجنس وتأثير المناخ . وقام أرسطو وبلين Pline وغيرهم بمحاولات مماثلة . ولم يفت من كتبوا بعد ذلك في فلسفة التاريخ أن يسجلوا بعض الملاحظات العابرة عن تأثير المناخ .

ثم جاءت بعد مرحلة التسجيل مرحلة البيان démonstrations والتعليق والتفسير الحقيقية . واستعان العلماء على ذلك بوسائل التدليل والإقناع أو على الأقل بذكر المشاهدات التي توضح آراءهم . وكان بودان والأب دوبوس ومنتسكيو أول من أقام بحق تفسير الظواهر الاجتماعية على هذا الأساس . فاعتمد منتسكيو في تفسيراته اعتماداً كلياً على تأثير المناخ : فالرهبنة وتحريم الخمر والميل لتعدد الزوجات وحتى أشكال الحكومات نفسها ، كلها في نظره نظم اجتماعية تتأثر بطبيعة المناخ . وقد قامت خلال القرن الثامن عشر مناقشات حادة حول تأثير الأسباب الطبيعية Causes physiques والأسباب الخلقية causes morales وأيها أكثر فاعلية (١). وهكذا نجد أن فكرة الأسباب قد تغلغت في صميم علم الاجتماع . ويلوح أن العقل البشري قد تأثر في بادىء الأمر وخضعت كبرياؤه أمام تأثير الظواهر المادية وهي الأكثر ظهوراً والأقوى فاعلية . وظهرت في هذا الموضوع كتابات كثيرة اقتصرت على البحث في تلك الأسباب . فكتب

---

(١) أنظر في هذا الموضوع مثلا :

Castillon, *Des causes physiques et morales*...., in-16o., 1759.

وفي القرن التاسع عشر كتاب پرتشارد .

James Prichard, The natural history of man, comprising inquiries into the modifying influence of physical and moral agencies on different tribes of the human family, in 8o., 1843.

وهذا الكتاب مترجم الى الفرنسية .

فلكونر Falconer ، بونشتتن Bonstetten عدة مؤلفات عن النتائج الاجتماعية التى تترتب على تغير المناخ (١) . أو ليس هناك اليوم من يعزو تدهور بعض الشعوب القديمة إلى تفشى الملاريا بينها . أو لم يعتقد البعض أنهم وجدوا أسباب الاختلاف فى أشكال الحياة الاقتصادية والسياسية فى تأثير أشعة الشمس أو تأثير الجفاف أو الرطوبة ؟ .

ولم يظهر الاهتمام ببحث ودراسة تأثير العوامل الخلقية أو الاجتماعية « les facteurs Sociaux » إلا منذ وقت قريب جدا . فليست المجتمعات فى الحقيقة إلا نظماً شاملة وكائنات موحدة وعوالم متميزة . فهناك إذن صلة وثيقة بين الأعضاء التى تتركب منها كل وحدة وكذلك بين الوظائف التى تقوم بحياة هذا الكائن الموحد . هناك كما يقول البعض نوع من الرابطة أو التعاون بين هذه الأجزاء المختلفة وكذلك بين الوظائف المختلفة . فهذا الاصطلاح أو تلك العادة تفرض وجود اصطلاح آخر أو عادة أخرى تكون لها سبباً أو نتيجة . فالظواهر الاجتماعية تفسر إذن كل منها الأخرى أو يمكن تفسير كل ظاهرة منها فى ضوء ظاهرة أخرى . وقد قلت من قبل إن القرن الثامن عشر قد عرف وأكد تأثير الأسباب الخلقية أو الاجتماعية إلى جانب الأسباب الطبيعية . ومع ذلك فان تحديد الصلة الوثيقة أو التوافق فى حدوث الظواهر الاجتماعية عمل قام أو يقوم به علماء الاجتماع فى

---

(١) اقرأ كتاب فلكونر عن تأثير المناخ :

W. Falconer, *Ueber den Einflus des Klima*, in-8o., 1785.

وكذلك كتاب بونشتتن .

Bonstetten, *L'homme du Midi et l'homme du Nord, ou l'influence du climat*, in-8o., 1824.

(٢) إقرأ كتاب هنتنجتون عن الحضارة والمناخ .

Ellsworth Huntington, Civilisation and Climate, in-8o., 1910.

العصر الحديث . ولا يزال هذا العلم إلى يومنا هذا فى بدء تأسيسه . ونحن نستطيع أن نتتبع الخطوات التى تمت فى هذا السبيل فى النشرة السنوية لعلم الاجتماع L'année sociologique . ومؤسس هذه النشرة هو العلامة الفرنسى دوركيم Durkheim (١٨٥٨ - ١٩١٧) وقد استطاع بعبقريته أن يكون عالم اجتماع وعالماً للأجناس البشرية (١) . ولكنه بدأ حياته وظل إلى حد ما مطبوعا بطابع الفيلسوف . فاهتم بدراسة علم الاجتماع ليستطيع أن يصل عن طريقه إلى تأسيس علم الأخلاق . ومع ذلك فان أحداً لم يستطع أن يبلغ شأوه فى بيان قيمة وأهمية الطريقة المقارنة فى الكشف عن الظواهر الاجتماعية وتفسيرها . فقد أبان فى قوة أن العلم الحقيقى لا يقوم بغير اتباع هذه الطريقة . واتجه جميع تلاميذه وأتباعه هذا

---

(١) يستطيع القارىء أن يتتبع التطور والتحول الذى طرأ على فكرة دوركيم حين يقرأ كتابه الأول وكتابه الأخير . وهذان الكتابان هما :

De la Division du travail Social, in-8o., 1893; *Les Formes élémentaires de la vie religieuse*, in-8o., 1913.

أما عن المصادر الفلسفية التى تأثرت بها فكرة دوركيم (وأهمها آراء كومت ورنوفييه وفوندت) فيمكن الرجوع فيها إلى ما نشر فى المجلة الفلسفية .
Revue philosophique, P. 119, 1887.

وكذلك إلى النشرة السنوية لعلم الاجماع المجلد ١٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ . وإلى مجلة ما بعد الطبيعة والأخلاق .
Revue de Métaphysique et de morale, P. 186-187, Mars-Avril 1919.

وقد أوضح لنا موس فى إحدى كتاباته الأخيرة أن لوسيان ڤهر هو الذى عرف دوركيم بالمقال الذى كتبه فريزر عن النظام الطوطمى Totemism فى دائرة المعارف البريطانية ووجه اهتمامه بلا شك الى دراسة علم الاجناس المقارن . ولا أدرى إذا كان دوركيم قد قرأ كتاب العالم الامريكى مورجان عن المجتمع القديم *Ancient Society* 1877 قبل أو بعد هذا التاريخ ولكن مما لا شك فيه أنه تأثر بهذا الكتاب تأثيرا واضحا .

الاتجاه : أى المقارنة للوصول عن طريقها إلى التفسير مع مراعاة الدقة العلمية واتخاذ الاحتياطات الضرورية للوصول إلى النتائج الصحيحة . وقامت هذه المدرسة بدراسات اجتماعية قيمة عن الأساطير والشعائر الدينية وقام البعض على وجه الخصوص بدراسة عميقة تقديم القرابين le sacrifice ودراسة السحر والعرف القانونى والزواج الخارجى L'exogamie ونظام القرابة والنماذج المختلفة للأسرة والنظم الاقتصادية الخ . . .

وهذه الظواهر أو النظم كما بينا يرتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباطا وثيقا ويمكن تفسير بعضها فى ضوء البعض الآخر وقد وجه علم الاجتماع فى أيامنا هذه كل همه إلى الكشف عن العلاقات التى تتألف من مجموعها هذه الرابطة الوثيقة .

ويجدر بنا الآن أن نقف عند هذا الحد فقد تتبعنا الخطوات التى مر بها علم الاجتماع إلى الوقت الحاضر وبدأنا فى التعرض للمستقبل . وقد أردنا فى هذا الكتيب أن نكتب مقدمة لا خاتمة . ويسرنى أنى استطعت أن أبين بوضوح أن علم الاجتماع كدراسة تحقيقية مقارنة قد خطا نحو التقدم فى الوقت الذى تقدمت فيه مراحل الكشف عن المناطق المجهولة فى هذا العالم . كما يسرنى أيضاً أنى استطعت أن أبين الدور الذى لعبه فى هذا التقدم المصلحون والمتنبئون وكذلك الدور الأعظم أهمية الذى قام به العلماء المدققون الذين عنوا بتأمل حياة الإنسان داخل نطاق المجتمع .

النهـــاية

بعض المراجع العـــامة

١ ـ كتب مدرسية وموسوعات ذات طابع عام

1. Hubert (R.) — Manuel élémentaire de Sociologie. Programme des Ecoles normales primaires, in-8o., 1925, XIV-440 pages. Librairie Delalain, Paris.

مبادىء علم الاجتماع تأليف العلامة هوبرت

هذا الكتاب يعطى فكرة عامة ومختصرة عن أهم النتائج التى سجلتها أبحاث علم الاجتماع .

2. Deniker (J.) — Les races et les peuples de la terre. (Deuxième édition), in-4o., 1926, VIII-750 pages. Librairie Masson, Paris.

الأجناس والشعوب على سطح الأرض تأليف العلامة دينكر

3. Buschan (G.) — Illustrierte Volkerkunde. (Deuxième édition), deux tomes en trois volumes in-4o., de 686, 1078 et 1154 pages. Librairie Stecker et Schroder, Stuttgart.

الأنواع البشرية المصورة تأليف العلامة بوشان

كتاب جامع من أحسن ما كتب فى الأثنوغرافيا الوصفية والمقارنة .

ويستطيع القارىء أن يضيف إلى هذه المؤلفات الكتب التى ورد ذكرها فى الفصلين الأخيرين من كتابنا هذا .

٢ ـ مجموعات من النصوص المختارة فى علم الاجتماع

4. Bouglé (C.) et Raffault (J.) — Eléments de Sociologie. Textes choisis et ordonnés, in-8o., 1926, 506 Pages; Librairie Alcan, Paris.

مبادىء علم الاجتماع - نصوص مختارة ومرتبة ومعلق عليها بقلم بوجليه ورافو

5. Kroeber (A.L.) et Waterman (T.T.) — Source-book in Anthropology, in-8o., 1920, 565 pages. University of California Press, Berkeley, Etats-Unis.

المدخل فى الأنتروبولوجيا تأليف كروبر ووترمان .

٣ - قواميس فى علم الاجتماع

6. Robinet (J.B.R.) — Dictionnaire universel des sciences morale, économique, politique et diplomatique, ou Bibliothèque de l'homme d'Etat et du citoyen, 30 Volumes in-4o., 1777-1783, à Londres chez les libraires associés.

القاموس العالمى للعلوم الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والدبلوماسية أو مكتبة رجل الدولة والمواطن تأليف العلامة روبينيه .

7. Conrad (J.), Elster (L.), Lexis (W.) et Loening (E.) — Handworterbuch der Staatswissenschaften (3e. édition), 8 Volumes in-4o., 1909-1911. Librairie Gustav Fischer, Iéna.

قاموس العلوم السياسية تأليف كونراد ، إلستر ، لكسيس ، لونتج . الطبعة المذكورة أفضل من الطبعة الحديثة .

٤ - مجموعات فى مراجع علم الاجتماع

8. Bouglé (C.) et Déat (M.) — Le guide de l'étudiant en Sociologie (2e. édition), in-8o., 1921, 65 pages. Librairie Marcel Rivière, Paris.

مرشد الطالب فى علم الاجتماع تأليف بوجليه وديا .

هذا الكتاب يحتوى على قائمة بأهم المراجع التى يسترشد بها الطالب فى أبحاثه.

9. Maunier (R.) — Manuel Bibliographique des sciences sociales et économiques, in-8o., 1920, XVI-228 pages. Librairie du Recueil Sirey, Paris.

كتاب عن المراجع فى العلوم الاجتماعية والاقتصادية لمؤلف هذا الكتاب. وهو يحتوى على قوائم مرتبة بحسب المواد عن المراجع العامة والخاصة فى علم الاجتماع.

10. Université libre de Bruxelles, Instituts Solvay. Revue de l'Institut de Sociologie, in-8o., trimestriel depuis 1910. Institut de Sociologie, Parc Léopold, Bruxelles.

نشرة معهد علم الاجتماع التابع لجامعة بروكسل الحرة

أعداد هذه النشرة تحتوى على مجموعات وافية من المراجع الدورية مرتبة بحسب المواد.

٥ - نشرات ومجلات دورية

11. L'Année Sociologique — in-8o. annuel, puis trisannuel, puis de nouveau, annuel. Librairie Félix Alcan, Paris.

النشرة السنوية لعلم الاجتماع مؤسسها العلامة دوركيم.

ظهرت المجموعة الأولى فى ١٢ مجلد من القطع الثمانى من ١٨٩٨ إلى ١٩١٢. وظهرت المجموعة الجديدة فى مجلدين ابتداء من ١٩٢٦. وتحتوى هذه المجلدات على أبحاث طريفة وعلى تلخيص ونقد لأهم المؤلفات التى كانت تظهر غضون العام عن علم الاجتماع. وهاتان المجموعتان لا غنى عنهما لمن يريد أن يتتبع التقدم الذى أحرزه علم الاجتماع المقارن.

12. Revue Internationale de Sociologie, in-8o., mensuel, puis bimensuel, depuis 1893. Librairie M. Giard, Paris.

المجلة الدولية لعلم الاجتماع - ظهرت أولا شهرية ثم نصف شهرية منذ سنـــة ١٨٩٣.

(ملاحظة) هذه هى أهم المراجع التى أثبتها المؤلف حين قام بنشر كتابه لأول مرة فى سنة ١٩٢٩. وغنى عن البيان أنه قـد ظهرت بعد ذلك مراجع أخرى قد تفوقها من حيث القيمة العلمية. ونحن ننصح القارىء إذا أراد أن يطلع على أحدث المراجع فى علم الاجتماع أن يقرأ الكتاب الذى ظهر حديثا فى أمريكا وعنوانه:

XX th Century Sociology
Edited by Gurvitch & Moore

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية فى مجلدين ونشرته دار:

Les Presses Universitaires.

(المترجم)

بعض المصطلحات التى وردت فى الكتاب

وترجمتها العربية

Aborigènes	السكان الأصليين فى الجزر النائية
Abstention	امتناع
Action	حدث ـ فعل
Adaptation	تكيف أو ملاءمة للوسط
Adoption	التبنى
Adoration	العبادة
Affirmation des causes	تأكيد الأسباب
Analogie	التشابه
Anarchie	الفوضى أو الفوضوية
Anatomie	علم التشريح
Anormal	شاذ أو غير طبيعى
Anthropologie Sociale	علم دراسة الانسان من الناحية الاجتماعية
Antiquité	العصور القديمة
Archaisme	الميل إلى دراسة القديم
Argot	اللغة الدارجة (بالنسبة للفرنسية)
Associations	تجمعات
Autobiographie	كتابة الانسان لتاريخ حياته بنفسه
Autorité sociale	السلطة الاجتماعية
Barbares	المتوحشون
Behaviour	سلوك

Bénédiction	المباركـــة
Berbères	البربر (سكان شمال إفريقيا)
Besoins	الحاجات
Biologie	علم الحيـــاة
Blâme	التوبيخ أو اللوم
Camorra	عصابات قطاع الطرق
Caste	الطائفة (بالمعنى الموجود فى نظام الطوائف بالهند)
Cercles de culture	دوائر ثقافية
Cérémonies religieuses	حفلات دينية
Chaldéens	الكنعانيون
Changement Social	التحول الاجتماعى
Chansons de Geste	الملاحم القديمة فى الأدب الفرنسى
Chefs	رؤساء القبائل
Circulation des choses	دورة السلع
Civilisation	الحضـــارة
Civilité	قواعد التأدب
Clan	العشيرة (فى المجتمعات البدائية)
Classes sociales	الطبقات الاجتماعية
Classification	التصنيف
Climat	المنـــاخ
Coalition	تحـــالف
Codes	مجموعات القوانين
Coefficients de corrélation	معاملات الارتباط
Collections des documents	مجموعات الوثائق

Comportements sociaux	التصرفات الاجتماعية
Concepts	المبادىء العقلية
Conformité	التوافق
Confréries	الفرق الدينية (كالمتصوفة)
Consanguinité	الأشتراك فى الدم
Consommation	الاستهلاك
Contingence	الاحتمال
Contrainte Sociale	جبرية الظواهر الأجتماعية
Contrat	عقد
Corps de métiers	الوحدات أو الجماعات المهنية
Cosmographie	دراسة الكون من الناحية الطبيعية
Courtoisie	المجاملة واتباع آداب اللياقة
Coutumes	العادات الجمعية أو العرف
Croyances	معتقدات
Culte	العبادة من حيث موضوعها
Curiosité	حب الاستطلاع
Délit	الجرم
Démonstration des causes	توضيح الأسباب
Dépréciation	احتقار ـ امتهان
Descendance	الذرية ـ السلالة
Dialectes	اللهجات
Diffusion	الانتشار
Discussion des documents	مناقشة الوثائق
Distinction	التمييز

Distraction	اللهو أو الترفيه عن النفس
Donation	الهبـــة
Droit comparé	القانون المقـــارن
Echanges	التبـــادل
Effets	النتـــائج
Emprunt	قـــرض
Endogamie	نظـــام الزواج الداخـــلى
Ephébie	نظام التجنيد عند قدماء الإغريق
Esclavage	نظـــام الرقيق
Esprit de classe	الوجـــدان الطبقى
Etat	الدولة
Ethnographie	علم وصف الأجنـــاس البشرية
Ethnologie	علم دراسة الأجناس البشرية
Evolution	التطـــور
Exogamie	نظام الزواج الخـــارجى
Exotisme	الميل إلى السياحة ودراسة الشعوب الشرقية
Expérience	تجربة
Expiation	التكفير
Explication des faits	تفسير الظواهر
Exploration	إكتشاف
Extravagance	الجرأة والتبجح
Fables	خرافات
Faits Sociaux	الظواهر الاجتماعية
Fatalité	حكم القدر

Féodalité	نظام الإقطاع
Fétiches	تعاويذ
Fétichisme	الطور الخرافى بالنسبة للعقيدة الدينية
Foi	العقيدة
Folklore	الأساطير الشعبية
Fonction	وظيفة
Formation	تكوين
Fraternité	أخوة
Frontières	الحدود
Généalogies	تتبع الأنساب
Générations	الأجيال
Génies	الأرواح التى تسيطر على حياة الإنسان
Gens	الأسرة الرومانية
Gérontocratie	حكومة الشيوخ السحرية
Groupements Biologiques	التجمعات البيولوجية
Groupements Géographiques	التجمعات الجغرافية
Groupements Sociologiques	التجمعات الاجتماعية
Groupes d'âges	الجماعات التى تتكون على أساس السن
Guildes	جماعات التجار والصناع فى العصور الوسطى
Habitation	السكن
Habitudes Collectives	عادات جمعية
Hébreux	العبرانيون
Hérédité	الوراثة
Hiérarchie	التدرج فى المراتب

Honneur	الشرف
Humidité	الرطوبة
Idéologues	الماليون
Imitation	التقليد
Impureté	النجاسة
Inconvénance	الخروج عن المألوف
Indice de dépendance	علامة التبعية
Inhumation d'objets	دفن الاشياء مع الموتى
Initiation (cérémonies d')	مراسم الدخول فى حظيرة الرجال
Institutions	النظم
Intuition	الحدس
Inventaire	سرد قائمة
Isolement	عزلة
Jargons	اللهجات المحلية
Jus Sanguinis	رابطة الدم
Jus soli	رابطة الأرض
Légendes	أساطير
Libre Volonté	الارادة الحرة
Liens quantitatifs	الروابط العددية
Ligue	حلف أو عصبة
Limites	حدود
Lithurgie	المراسم والصلوات الدينية
Loi des trois Etats	قانون الحالات الثلاثة (أو جست كومت)
Maffia	الجماعات السرية

(هذا الاصطلاح قاصر فى الأصل على الجماعات التى تقطن الجهات الجبلية فى جزيرة صقلية ولها نظامها الخاص فى القصاص وتطبيق العدالة وهى لاتخضع لقوانين البلد ولا لمحاكمها . وكلمة Camorra التى سبق ذكرها تعبر عن نفس المعنى فى إقليم نابولى)

Magie	السحر
Malédiction	اللعنة
Malfaiteurs	الأشرار
Matérialisme historique	المادية التاريخية
Matriarcat	نظام الأسرة القائم على سيادة الأم
Mélange	خليط
Mensonge	كذب
Métiers	المهن
Migration	الهجرة
Milieu social	الوسط الاجتماعى
Mise à l'index	التشهير أو النبذ
Mœurs	العادات الجمعية
Monachisme	حياة الرهبنـــة
Monothéisme	نظرية الأصل الواحد
Monographies	الدراسة الوصفية للوحدات الاجتماعية
Monogénisme	وحدة الإله
Morphologie sociale	دراسة الأشكال الاجتماعية
Mysticisme	حياة التصـــوف
Mythes	أســـاطير
Mythologie	علم الأســـاطير
Nécessité	الضرورة
Noblesse	النبالة
Nomades	البدو
Nomes	التقسيمات الإدارية فى مصر الفرعونية

(كانت هذه التقسيمات فى الأصل تعبر عن معنى العشائر الطوطمية وكان عددها يختلف بحسب العصور ولكن لم تتجاوز الأربعين فى غالب الأحيان)

Nomenclature	مجموع المصطلحات فى فن من الفنون
Obligation	الإلزام
Observation	الملاحظة
Occupation	حرفة
Ordres monastiques	نظم الرهبنة
Organicisme	المذهب العضوى
Originalité	ابتكار
Ostracisme	النفى أو الإبعاد

كان اليونان يكتبون قرارهم بالنفى على نوع من المحار ومن هنا جاء الاشتقاق وقد ذكر منتسكيو أن قانون النفى كان معمولا به فى أثينا وأراجوس وسيراكيوز

Parenté	القرابة
Patriarcat	نظام الأسرة القائم على سيادة الأب
Péché	خطيئة
Persécution	اضطهاد
Philosophie de l'histoire	فلسفة التاريخ
Phratrie	الانحاء (مجموعة العشائر فى نظام القبائل البدائية)
Polygamie	نظام تعدد الزوجات
Polygénisme	نظام تعدد الأصول
Polythéisme	تعدد الآلهة
Pouvoirs magiques	القوى السحرية
Prédation	السلب
Probabilité	احتمال
Profession	مهنـــة
Progrès	تقـــدم

Provinces géographiques	الأقاليم الجغرافية
Punition	عقـــاب
Pureté	الطهـــارة
Quartiers	الأحياء (فى تقسيمات المدن)
Questionnaires	مجموعات الاسئلة (لدراسة ظاهرة معينة)
Race	جنس أو عنصر
Raillerie	تهكـــم - سخرية
Rangs	مراتب
Règles sociales	القواعـــد الاجتماعية
Relation	علاقـــة
Répétition	تكـــرار
Répression	قـــمع
Réprobation	استهجـــان
Restitution	إعادة الأمور الى نصابها
Ridicule	مثير للسخرية
Rites	شعـــائر
Rites funéraires	شعـائر جنائزية
Rites nuptiaux	شعـائر الزواج
Sacrifice	تضحيـة
Sanctions sociales	الجزاءات الاجتماعية
Satire	مقطوعة شعرية للتهكم
Sciences sociales	العلوم الاجتماعية
Sciences morales	العلوم الأخلاقية

Sectes	فرق أو مذاهب دينيـة
Sédentaires	المستقرون فى صعيد واحد
Sermon	خطبة للوعظ الدينى
Sib, sippe	الأسرة الجرمـانية
Snobisme	حب الظهور
Société civile	مجتمع مـــدنى
Sources historiques	مصادر تاريخية
Statistique	إحصـــاء
Statut	قانـون أو لائحة
Suggestion	إيحـــاء
Superstition	خـــرافة
Syndicats	نقـابات العمال
Tabou	المحرمات الدينية (عند القبائل البدائية)
Tatouage	الوشـــم
Technologie	الفن الصناعى
Témoignages	الشواهد
Tempérament	مـــزاج
Théologie	علم اللاهوت
Totem	طوطم
Totémisme	النظام الطوطمى
Traditions	التقاليـــد
Transformation sociale	التغير الاجتماعى
Tribu	قبيـلة
Types sociaux	نماذج اجتماعية

Usage	اصطلاح
Usages locaux	اصطلاحات محلية
Vagabonds	المتشردون
Variations concomitantes	التغييرات المتلازمة
Voisinage	الجـــوار

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة المترجم أ — ى
أهم مؤلفات المؤلف
مقدمة المؤلف ١ — ٢

الفصل الاول : معنى علم الاجتماع ٣ — ٥
١ — تعريف علم الاجتماع ٣ —
٢ — مجال علم الاجتماع ٦ —
٣ — تسمية علم الاجتماع ١٢ —

الفصل الثانى : تعريف الظواهر الاجتماعية ١٦ —
١ — معنى المجتمعات ١٦ —
٢ — معنى الظواهر الاجتماعية ١٨ —
٣ — جزاءات الظواهر الاجتماعية ٢٦ —

الفصل الثالث : تقسيم الظواهر الاجتماعية
أولا : الجماعات الانسانية ٣١ —
١ — الجماعات البيولوجية ٣٤ —
٢ — التجمعات الجغرافية ٣٧ —
٣ — التجمعات الاجتماعية ٤٢ —

فصل الرابع : تقسيم الظواهر الاجتماعية (نهاية)

ـا : التصرفات الانسانية ٤٩-٦٦

١ – حياة الانتاج ٥٢ – ٥٧

٢ – حياة الاتصال ٥٧ – ٦١

٣ – حياة العبادة ٦١ – ٦٦

فصل الخامس : طرق البحث فى علم الاجتماع ٦٧-٨٧

١ – وصف الظواهر الاجتماعية ٦٧ – ٥٧

٢ – مقارنة الظواهر الاجتماعية ٧٥ – ٧٩

٣ – تفسير الظواهر الاجتماعية ٧٩ – ٨٦

فصل السادس : تاريخ علم الاجتماع

ولا : مرحلة الاعداد ٨٧-١٠٨

١ – المقارنة المستوحاة من الكتاب المقدس ٨٨ – ٩٣

٢ – المقارنة فى نطاق البحر الأبيض المتوسط ٩٣ – ٩٩

٣ – المقارنة ذات النطاق العالمى ٩٩ – ١٠٨

لفصل السابع : تاريخ علم الاجتماع

انيا : مرحلة التأسيس ١٠٩ - ١٣٢

١ – مقارنة الظواهر ١١١ – ١١٨

٢ – الايقان بوجود الأسباب ١١٨ – ١٢٧

٣ – بيان الأسباب ١٢٧ – ١٣٢

المراجع ١٣٣ – ١٣٩

عض المصطلحات التى وردت فى الكتاب وترجمتها العربية ١٣٩ – ١٤٧

تصحيح بعض الأخطاء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤١	١٧	كانوا يغرسون	كان يغرسوا
٦٢	١٢	أشكال	أشكالا
١١٧	٣	ظهـــرت	أظهـــرت

DATE DUE

J. Lib.

31 JUL 1983

[redacted]
بدوى ،محمد
المدخل فى علم الاجتماع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01011070